مذاهب وشخصيات

# مهدى الصومال

## بطل الثورة ضد الاستعمار

بقلم

دكتور محمد المعتصم سيد

مذاهب وشخصيات

# مهدي الصومال

## بطل الثورة ضد الاستعمار

بقلم

دكتور محمد المعتصم سيد

# تقديم الكتاب

لا يخلو تاريخ أمة من ظهور بطل مجاهد تبعثه العناية الالهية فى ظروف عصيبة ليدفع عنهم عدوا معتديا أو ليهديهم من بعد زيغ أو ضلال . وسواء وفق البطل فى أداء رسالته أو تغلبت عناصر الشر على عناصر الخير ، فان التاريخ يسجل سيرته فيتناقلها قومه جيلا بعد جيل ، يستخرجون منها العظات والدروس ، ويستمدون منها قوة روحية تجدد أملهم فى التخلص من محنة قد تكون ألمت بهم ، وتحضهم ضد الاغراء الدنيوى الذى كثيرا ما يستهوى ضعاف النفوس ، فيباع الوطن برخيص الثمن ، وتفتح الثغرات للأعداءينفذون منها لقاء ذهب لامع أو سلطان زائل .

وتاريخ امتنا العربية حافل بأسماء الابطال والمجاهدين ، منهم من قيض الله له النصر فدفع عن بلاده غوائل الطامعين ، أو استخلص لقومه حريتهم وكرامتهم من عدو غاشم أو حاكم ظالم .ومنهم من استشهد بعد نضال غير متكافىء فقدم اغلى ما يستطيع أن يقدمه انسان فى سبيل وطنه وعقيدته .

وفى هذا الكتاب الذى يسرنى أن اقدمه للقراء العرب مثل رائع من أمثلة الجهاد ، لم يثن عزم صاحبه قلة نفره أو انحراف بعضهم أو الخيانة السافرة للبعض الآخر . بل لم يرهبه أنه كان ينازل امبراطوريات ضخمة لديها من الامكانيات المادية والبشرية أضعاف أضعاف ما لديه . ان قصة كفاح « مهدى الصومال » الملا محمد بن عبد الله المحسن ضد البريطانيين والفرنسيين والايطاليين والأحباش لهى قصة مثيرة منعشة لفؤاد كل عربى . فقد ظل يناضل القوى المعبأة لاخضاعه سنين طوال، لم يعبأ بتهديد ، ولم تغره الهدايا والوعود . فما أروع رده على رسالة القائد البريطانى التى كانت تنضح وقاحة وغرورا والتى جاء فيها :ـ

« سننسفك نسفا اذا لم ترجع عن غيك ، واذا لم تخمد ثورتك

الجنونية .. واعلم أن حكومة صاحبة الجلالة الملكة عظيمة جدا ولا يستطيع مجنون مثالك أن ينال منها شيئا .. »

فكان رد بطلنا عليه :

« الى الجنرال كوفل ، قائد الشيطان .. قد اطلعت على رسالتك وفهمت منها جميع أغراضك الدنيئة وأغراض حكومتك الوضيعة .. واعلم أن قواتكم التى تفاخرون بها لاتساوى لدى شيئا .. ومهما تكن الظروف لن أستسلم ولن أكون للشرك عبدا » .

قال تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » . وقد شاء الله جلت عظمته أن يحطم غرور المعتدين ويرد كيدهم ، فأيد عبده الصالح الذى استطاع أن يلحق بأعدائه هزيمة ماحقة قتل فيها القائد البريطانى صاحب تلك الرسالة السفيهة ، وضاعت فيها هيبة «حكومة صاحبة الجلالة الملكة العظيمة جدا » .

انها حقا لعبرة لكل من طغى واستعلى ..

ومما يجعل لهذا الكتاب أهمية لدى القارىء المصرى أن مصر لعبت دورا هاما فى تاريخ الصومال الحديث .. فقد شملت الادارة المصرية بعض أجزاء الصومال فى القرن التاسع عشر ، فعملت على نشر التعليم فى البلاد وأنشأت المستشفيات ونشطت التجارة فعم الرخاء وظهرت بوادر نهضة فى الصومال لم يشهدها شعبه من أمد طويل . فلما أرغم الاستعمار المصريين على الانسحاب ، رحل الغاصب الاوربى محل الأخ المصرى كان وعى الصوماليين قد اكتمل ، ولم يخف عليهم الفرق الشاسع بين الادارة المصرية التى كانت تأخذ بيدهم وترعى صالحهم وبين بطش المستعمر وأساليبه الاستغلالية وأنانيته التى لا حد لها . لذلك كانت فترة الادارة المصرية – على قصرها – من العوامل الفعالة فى اذكاء الشعور الوطنى فى الصومال وتصميم الشعب الصومالى على عدم الخضوع للأجنبى .

وكان جهاد بطلنا محمد بن عبد الله الحسن انعكاسا طبيعيا لهذا التصميم . فلم يرض لبلاده أن تستسلم بخنوع للغاصبين ، بل قاتلهم « بنية صالحة ، وايمان قوى . وعزيمة لا تعرف الملل » . لقد استشهد البطل فى ساحة القتال ، ولكن الكفاح الذى غرس بذوره لم يلبث أن آتى ثماره بعد أن خارت قوى الاستعمار فى الحرب العالمية الثانية ولم تستطع الصمود أمام تيار التحرر الجارف الذى ساد العالم فى السنوات الحديثة .

واذا كانت مصر قد أسهمت فى تقدم الصومال فى القرن التاسع عشر وفى خلق وعى قومى بين أفراد شعبه ، فقد ارتبطت مصر أيضا بقصة

استقلاله .لم يكن من السهل على الدول الاستعمارية أن تشاهد امبراطوريتها وهى تتفكك ، فتستقل الشـــعوب التى كانت تسيطر عليها الواحد تلو الآخر . فلجأت تلك الدول الى التسويف والمماطلة فى الاعتراف بحق هذه الشعوب فى الاستقلال. عسى أن تتبدل الظروف فتستمر فى سيطرتها وفرض على الصومال أن يظل عشر سنوات تحت وصاية الأمم المتحدة قبل أن يحظى باستقلاله . وعينت ايطاليا وصية على البـــلاد فى تلك الفترة . وكان اختيار ايطاليا بالذات بعيدا عن الذوق السليم ، لأنها كانت فيما مضى تحتل الجزء الأكبر من الوطن الصومالى، ولم تكن صفحتها فى حكم البلاد ناصعة البياض . وشكلت هيئة الأمم المتحدة لجنة وصايه لتراقب تنفيذ ايطاليا لشروط هذه الوصاية الدولية ، وكان من بين أعضاء هـــذه اللجنة مواطن مصرى أنس اليه الصـــوماليون لما رأوا فيه من صلابة فى الحق وترصد لألاعيب الاستعمار . لم يكن الشهيد كمال الدين صلاح بالشخص الذى يغمض عينيه عن المؤامرات التى تحاك ضد مصير الشعب الذى بادله المودة والحب . لم يرق ذلك لقوى الشر التى ادركت أن فى وجوده خطرا على خططهم العدوانية . فكان أن اغتالته يد الغـــدر حتى يخلو الجو للمتآمرين . ولكن دماء كمال الدين صـــلاح لم تذهب سدى . فقد انتصر الشعب الصومالى لمبادئه بعد استشهاده ومالبث أن نال استقلاله برغم كيد الكائدين .

ان مشكلات الصومال لم تنته باستقلاله . فقد اقتطع الاستعمار مســـاحات متسعة من الوطن الصومالى الكبير مازال ســـكانها يرزحون تحت الحكم الأجنبى . ولكننا نؤمن بحتمية التاريخ . والزمن كفيل باعادة الحقوق الى اصحابها طالما اتفقت كلمتهم وصحت عزيمتهم على استعادتها. ولاشك أن الصومال سيلقى كل عطف وتأييد فى تحقيق آماله من جمهوريتنا العربية المتحدة ، لما يربطنا وشعب الصومال من أواصر المودة والأخوة ، ولما نرجوه له من عزة وخير عميم .

وفى الختام . لايسعنى الا أن اهنىء صديقى الدكتور محمد المعتصم على اخراج هذا الكتاب القيم الذى استمتعت بقراءته والذى لا أشـــك انه سيثلج صدر كل قارىء عربى .

والله ولى التوفيق .

**عز الدين فريد**

# مقـــدمة

ربع قرن من الكفاح المتصل والقتال المستمر عاشـها هذا البطل يصارع قوى الاستعمار الجبارة ..

سنوات متلاحقة من النضال المرير قضاها مدافعا عن مبادئه فى تحرير بلاده والقضاء على أعدائها .. فاما النصر التام .. أو الاستشهاد فى قضية الحق والتحرير ..

عاش الملا محمد بن عبد الله الحسن ليتزعم ثورة بلاده ــ الصومال ــ ضد السـيطرة والتحكم الاجنبى وليكمل فى ذلك السلسلة التى تصدر بطولتها احمد عرابى فى مصر ومحمد احمد المهدى فى السـودان والتى هدفت الى اجلاء القوات الأجنبية المستعمرة عن الأراضى العربية التى قفزت اليها لتحكمها فى ظروف ضعف سياسية .. مرت بها هذه البلاد آنذاك ..

ظهر الملا فى هذه الفترة نفسها . تلك التى برزت فيها زعامة هؤلاء القادة .. وكانت دول الاستعمار العاتية تمكن لنفوذها فى بلادهم .. هذه بريطانيا وتلك فرنسا .. ثم ايطاليا أما هو .. فكان نصيبه من الجهاد أوفر .. لقد كان عليه أن يحارب قوى أربع دول عتيدة بعضها عريق فى استعمار الشعوب والهيمنة عليهـا .. والبعض الآخر حديث العهد بهذه السياسة ويريد أن يثبت جدارته فى هذا الميدان القبيح فى أقصر وقت .. كان عليه أن يحارب انجلترا وفرنسا وايطاليا والحبشة فى آن واحد ليخلص حقوق مواطنيه من براثنها ..

❋ ❋ ❋

شب الملا محمد بن عبـد الله الحسن عن الطوق ليجد الصـومال العربى فريسة لاطماع هذه الدول كل يريد أن يستخلصها لنفسه .. ويستأثر بخيراتها دون غريمة .. فكيف حدث ذلك ؟

جاء هذا التحول السريع فى سياسة التسابق الاستعمارى الاوربى على امتلاك أجزاء من افريقيا منذ عام ١٨٨٠ .. ففى هذه السنة بدأت

الدول الاوربية تدخل مبدأ امتلاك أجزاء من هذه القارة فى نطاق سياستها .. فأخذت هذه الدول فى بسط سلطانها على أجزاء فى افريقيا .. فاستعمرت بلجيكا الكنغو .. واحتلت فرنسا تونس .. ودخلت انجلترا مصر .. وهكذا .

وانتقل نشاط هذه الدول وغيرها الى مناطق غربى البحر الأحمر وساحل افريقيا الشرقى .. ففى هذه الجهات تركزت العمليات التوسعية الجديدة فى المناطق التى كانت تديرها مصر فى ساحل الصومال .. وهرر .. وأقاليم شرق السودان بعد أن انحسرت عنها هذه الادارة نتيجة للاحتلال .. الانجليزى لمصر .. ولقد أسرعت كل من بريطانيا وإيطاليا وفرنسا الى محاولة اقتطاع اجزاء من هذه الجهات .. وكانت أول آثار هذا الاتجاه الجديد فى السياسة الاستعمارية الأوربية أن تشابكت مصالح هذه البلاد فى منطقة واحدة تعد من أهم المناطق الاستراتيجية فى افريقيا .. وبدأت أهداف كل من البلاد الثلاثة تتعرض الخطر الانهيار نتيجة لهذا الاحتكاك ..

ووسط هذه الدوامة الهائلة من الصراع .. قاد الملا محمد بن عبدالله الحسن مواطنيه فى ثورة وطنية ضد قوى الاستعمار .. وكان كفاحا مريرا .. استمر لفترة طويلة ..

وحركة مهدى الصومال الثورية .. صادفت كما صادفت غيرها من الحركات التحررية الكثير من التشويه والتلفيق .. لقد رأينا كيف صور الاستعمار لنا حركة عرابى التحررية الوطنية .. وكيف رسم لنا شخصية المهدى والثورة المهدية .. لقد أظهرهما فى غير صورتهما الحقيقية .. ليقلل من أهميتهما ويمحى صور البطولة والهالة المفروض وجودها من العقول .. وهذا بالضبط ما فعله الاستعمار مع مهدى الصومال وثورته لقد اظهره فى شخصية الرجل المتهوس وحركته الثورية بالهمجية والطيش .. وسجل مؤرخوه وكتابه فى كتبهم هذه الوقائع الكاذبة ليجعلوا منها حقيقة تسىء الى هذا البطل المكافح وتضيع معالم كفاحه .. ولم تر سيرته وثورته النور الا على لسان شهود العيان وقليل من الكتاب المنصفين الذين أوردوا بعض الحقائق عنه .. أما الكتاب الوطنيون فقد فرض عليهم الاستعمار رقابة شديدة لحصار انتاجهم ..

والاستعمار فى هذا العمل يكرر نفسه ... فى الصومال بالذات .. ففى القرن السادس عشر قام البطل الصومالى أحمد بن ابراهيم الشهير « بجرانى » بحربه المشهورة ضد الأحباش والبرتغاليين وألف فى هذه الأحداث ــ العالم العربى ابن عرب فقيه ــ كتابه المشهور « فتوح البلدان » .. وقد وقف الاستعمار الحبشى لهذا الكتاب بقوته وهيمانه

.. ففرض عقوبة الاعدام على من يمتلك هــذا الكتاب ويثبت أنه يعرف القراءة والكتابة .. والسجن المؤبد لمن يثبت جهله بهما .. وبهذا اختفى هذا السفر الجليل الذى يروى تاريخ فترة زاهرة لكفاح العرب ضــد قــوى الاستعمار .. ولم يبــق منه الا نسخ تعــد على أصابع اليد الواحدة ..

***

وبرغم قرب أحداث ثورة الملا التى تكاد تكون معاصرة .. الا أنها ظلت تائهة بين الحقيقة والتضليل وكل المحاولات التى بذلت لاخراج تاريخ صحيح لثورة الصومال ضد الاستعمار فى أواخر القرن التاسع عشر وتاريخ قائدها .. محاولات اجتهادية جانب بعضها التوفيق .. وسارت تهدى الغير الى الحقيقة التى سوف تظهر فى يوم من الأيام ناصعة مشرفة .. يفخر بها العرب عامة .. وعرب الصومال خاصة .. ولتكمل هذه السيرة .. سيرة عرابى وثورته فى مصر ضد الاستعمار البريطانى .. والمهدى وثورته فى السودان ضد هذه القوة التى أرادت فرض سيطرتها على وادى النيل .. ولتكون سيرة هؤلاء الأبطال وغيرهم اسطورة المستقبل التى تروى للأجيال المقبلة ..

* * *

وفى حياة زعيم الصومال المكافح أكثر من اسم وأكثر من صفة .. فمحمد بن عبد الله حسن ، اسمه الحقيقى ..

وابن عبدالله حسن ، اسم الشهره ..

ومهدى الصومال ، الاسم الذى عرف به كزعيم وقائد ..
والملا ، هو الاسم الذى عرف به فى الدوائر الأجنبية ..

وسوف نذكر هذه الأسماء جميعا فى مجال الحديث عن صاحب هذه السيرة .. فهى تعبر فى النهاية عن شىء واحد .. هو شخصية بطل الكفاح فى القطر الصومالى الشقيق .

# الفصل الأول

## مهدى الصومال فى أحضان العروبة

الملا محمد بن عبدالله حسن سليل أسرة عربية صميمة من تلك التى استوطنت افريقيا .. منذ عرفت العروبة طريقها الى هذه الجهات .. ففى بلاد الأوجادين .. أحد المقاطعات العربية الاسلامية الهامة فى شرقى أفريقيا .. ولد بطل هذه السيرة لأب أوجادينى وأم تنحدر الى أسرة عربية عريقة من تلك التى استقرت على الحدود الحبشية الصومالية .

ونشأ الملا فى أرض الكفاح التى شهدت أمجاد العرب والعروبة منذ القرن الثانى عشر الميلادى وازدهرت فى أحسن صورها أيام السلطان الفاتح أحمد جرانى فى القرن السادس عشر ، حيث دار الصراع على أشده بين العناصر العربية التى هاجرت من الجزيرة العربية الى أرض افريقيا ، وانتشرت على سواحلها الشرقية وفى داخلها وبين الأحباش الذين كانوا يسيطرون على معظم هذه الانحاء من ناحية، وقوى الاستعمار الأوربى التى بدأت تسعى لفرض حكمها على هذه المواقع من ناحية أخرى ، وكان هذا الصراع رهيبا يتمثل فى حب البقاء والهروب من الفناء .

ويحسن بنا قبل أن نتناول سيرة الملا عبد الله حسن وكفاحه من أجل استقلال بلاده .. أن نسترجع تاريخ العروبة فى هذه البلاد التى شهدت كفاحه ونضاله كما شهدت كفاح ونضال أسلاف له من قبل .

تعددت رحلات العرب وهجراتهم من الجزيرة العربية الى الساحل الافريقى المقابل لها .. وكان لقرب الشقة بين ساحل الصومال والجزيرة العربية أثره الكبير فى تسهيل أمر هذه الهجرات .. فاندفعت جماعات عربية فى دفعات تشق ريقها الى وطنها الجديد فى افريقيا .. وعلى مرور الزمن قويت شوكتهم فتمكنوا من تكوين امارات عربية فى الأماكن الساحلية .. ثم ما لبثوا أن توغلوا فى الداخل حيث تقيم قبائل الصومال وكونوا هناك امارة اسلامية عربية كبيرة .. عرفت بامارة

هرر أو العدال .. أما الامارات الساحلية فكانت امارتى مقديشو والزيلع واشرف على هذه الامارات جميعها العرب الذين تأقلموا فى البيئة الصومالية .

***

واستطاع العرب النازحون الى بلاد الصومال أن يعربوا قبائل هذه البلاد ، وسجلوا حتى مطلع القرن السادس عشر نجاحا كبيرا فى هذا المضمار .. الأمر الذى أدى الى خلق عصبية لهم فى الداخل ومن صميم أبناء هذه البلاد .. والفضل فى هذا النجاح يرجع الى الأسلوب الذى اتبعه العرب المهاجرون مع القبائل الصومالية كان من القوة والاقناع بحيث استطاعوا أن يجعلوا لدعوتهم أنصاراً ومؤيدين فى الساحل وفى الداخل على حد سواء .. ومن المعروف أن النشاط المألوف بالنسبة لهذه البلاد كان قاصراً على الساحل فقط .. فى ذلك الحين .. لدرجة أنه لم يحدث أى توغل أوربى فى الداخل على الاطلاق .

وكان لانتشار العروبة والاسلام فى هذه المنطقة الافريقية وعلى هذه الصورة الكبيرة .. ثم تأسيس امارات يسيطر عليها العرب سيطرة كاملة .. كان لهذا أثره السيىء فى نفوس حكام الحبشة المسيحيين ودول أوربا المسيحية التى كان لها نشاطها على الساحل الافريقى .. فبدءوا ينظرون الى النشاط العربى نظرة خوف ، واعتبروا الامارات الاسلامية مزاحما خطيرا لنفوذهم وقد يؤدى فى النهاية الى استئثار العرب بالمنطقة كلها ، هذا فى الوقت الذى ازداد فيه أمراء العرب ورعاياهم حرصا على التمسك بكل شبر حصلوا عليه وعملوا على تدعيم مكاسبهم بشتى الوسائل .

***

وقد ساعد هذا الجو على اشاعة التوتر والقلق بين العرب ومنافسيهم وأدى فى النهاية الى قيام حروب متعددة بين ملوك الأحباش وأمراء العرب فى بلاد الصومال ، كل يحاول المحافظة على سلطانه وكيانه وقد اتخذت هذه الحروب صورة الجدية ابتداء من القرن الثالث عشر .. وقد كون أمراء العرب فى الساحل وفى الداخل جبهة موحدة لمواجهة هذا الخطر .. وكان لهذا التكتل أثره فى الانتصارات التى أحرزها العرب .. الأمر الذى أدى الى اتساع رقعة حكمهم .

وهكذا خلق هذا الجو نوعا من التوتر بين الفريقين أدى فى النهاية الى قيام حروب متعددة بين ملوك الأحباش وأمراء الامارات الاسلامية . كل يحاول أن يحافظ على كيانه وسلطانه .

واتخذت هذه الحروب صورة واضحة فى عهد مؤسس الأسرة

السلمانية فى الحبشة يكون املاك ( ١٢٧٠ — ١٢٨٥ م ) وكذلك فى عهد عمد صهيون ( ١٣١٤ — ١٣٤٢ ) وقد سقط فى هذه الحروب عدد من أمراء المسلمين شهداء فى سبيل المحافظة على استقلال اماراتهم .. التى كاد يقضى عليها ملوك الحبشة قضاء تاما .

***

وفى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى .. بدأ امراء المسلمين فى بلاد العدال بدءوا قتالا عنيفـــا مجيدا ضد الدولة الحبشية يعضدهم فيه المسلمون المنتشرون على طوال الساحل بالمال والسلاح .. ويساندهم فى الداخل بعض ولاة ملك الحبشة فى اقليم أمائو وهديه وفاتيجارو وداورو .. وكانوا على ولاء واخاء مع ملوك العـــدال بعـــد أن استقلت اماراتهم نسبيا عن سلطة ملوك الأحباش .. كذلك دخل الى جانب ملوك العدال فى هذه الحروب .. حكام المقاطعات فى الحدود الشـــمالية الشرقية للحبشة الذين كانوا يحكمون ولايات صغيرة مستقلة تماما عن الحبشة .

هذه الجبهة المتحدة المكونة من امراء العدال وحلفائهم اشتركت فى القتال ضد الحبشة بصورة منتظمة أكسبتهم النصر تلو النصر .. فاستمر اتساع دولة العدال يسير جنبا الى جنب مع الحروب المظفرة التى قاد لواءها أمراء هذه الدولة الاسلامية .. وأخذوا يقتطعون بفضل انتصاراتهم جزءا كبيرا من حدود الحبشة الشـــمالية والشرقيـــة .. وانتهت هذه المرحلة من الحروب بأن تمكن السلطان أبو بكر أحد خلفاء السلطان عمر الأصمع من أن يؤسس دولة كبيرة .. كان نواتها دولة العدال القديمة .. واستبدل العاصمة زيلع بعاصمة أخرى هى هرر — وكان ذلك فى عام ١٥٢١ ميلادية .

***

وبانتقال عاصمة دولة العدال الى مدينة هرر عام ١٥٢١ .. بدأ عهد جديد من التطور فى سياسة الدولة الخارجية وأهدافها التوسعية بالنسبة للحبشة .. وكان أول عمل اتخذ فى هذا السبيل هو توحيد الدويلات الصغيرة الواقعة على الحدود الشرقية للحبشة .. وسكانها خليط من الأحباش ومهاجرى العرب من المسلمين .. ومن هذا المزيج استطاع أمراء العدال أن يكونوا جبهة قوية متحدة لتكون على أهبة الاستعداد للمرحلة المقبلة فى معاركهم ضد الأحباش .. هذه المرحلة التى قاد لواءها السلطان أحمد بن ابراهيم سلطان هرر الشهير بجرانى أى « الأشول » .. وقد قام هذا السلطان بعدة حملات منظمة على بلاد الحبشة حتى كادت تدين له كلها بالطاعة .. ويمتاز القرن السادس عشر الذى قامت فيه هذه الحروب

بالحماس البالغ الذى دفع المسلمين الى الزحف الى الداخل ·· بعد أن كانت مســـارح الحروب السابقة لا تتجاوز المنـــطقة الواقعة على حدود الحبشـــة ·

وتمتاز الحروب التى قامت فى القرن السادس عشر بين المسلمين والأحباش بأنها لم تعد حربا محلية كما كانت من قبل ·· بل دخل عليها عنصر جديد بدأ يوجه اهتمامه الشديد بهذه المنطقة من افريقيا وربط مصالحه ببقائه فيها أو سيطرته عليها ·· هذا العنصر الجديد كان ممثلا فى كل من تركيا والبرتغال الذى بدأ التصارع بينهما على هذه المنطقة ·· كل يبغى السيطرة منفردا عليها للظفر بموقعها التجارى الممتاز ··

ففى الوقت الذى كان فيه البرتغاليون بقيادة هنرى الملاح حاكم سبتا يحاولون تأسيس علاقات تجارية مع مدن افريقيا الساحلية حتى يتمكنوا من القضـــــاء على منافسة المسلمين حكام مصر ·· كان الأتراك قد استقروا فى آسيا الصغرى واحتلوا الشرق الأدنى وسيطروا على البحر الأحمر وزاحموا أساطيل البنادقة فيه ثم أطلوا على الخليج الفارسى ولم يبق أمامهم الا البحر الأحمر ·· وكان هدف الأتراك كما كان هدف البرتغاليين — من الســـيطرة على البحر الأحمر أن يهيمنوا على المراكز التجارية فيه ·· كما كان هدف الأتراك قطع طريق التجارة على البرتغاليين وشل حركتهم ·· ومن ثم يسهل عليهم احتكار التجارة الهندية ·

***

بدأ الأتراك فى تنفيذ خطتهم فى البحر الأحمر ·· فبعد أن هزم قنصوه الغورى آخر سلاطين المماليك فى مصر ·· أرسل السلطان سليم قائده سنان باشا فى حملة الى بلاد العرب فأخضع حكامها وزعماءها وعين حكاما أتراكا فى كل المدن ·· وتم للأتراك بعد ذلك احتلال كل الموانى الواقعة على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر وعقب ذلك استولوا على زيلع ·· وأقاموا بها كذلك جمركا وكونوا بها أسطولا من عدة قطع صغيرة لمهاجمة سفن التجار وكان ذلك عام ١٥١٩ ·

ومن هذا الجزء من الساحل الافريقى ·· بدأ الأتراك يتطلعون الى المنطقة كلها ·· وأيقنوا أنهم اذا تمكنوا من اقامة دولة تابعة لهم فى الحبشة ·· تسيطر على ساحل البحر الأحمر الغربى ·· فان سيادتهم على طريق التجارة الى الهند تكون استكملت أسبابها ·

وفى الوقت الذى كان يفكر فيه الأتراك فى ايجاد حليف لهم فى هذه المنطقة ·· كان أمراء العدال يسعون جاهدين لكسب حلفاء يعينونهم فى حروبهم ضد الأحباش وخاصة بعد هزيمتهم الكبيرة أمام ملك الحبشة لبناء

دبنجل عام ١٥٠٨ م والتى أحرق فيها معظم مدن بلاد العدال وقتل من مسلميها ١٢٫٠٠٠ نسمة ٠٠ وغنم من ممتلكاتها أشياء كثيرة ٠٠ فلم يكن مستغربا أن يتم التجاوب بين الأتراك وأمراء العدال بمنتهى اليسر ٠٠ وأخذ الطرفان يوثقان علاقتهما ببعضهما البعض ٠

وعلى هذا النحو قام حلف جديد قوامه الأتراك المسلمون الساعون الى ايجاد مناطق نفوذ لهم فى هذه البقعة من افريقيا ٠٠ والأمراء المسلمون فى بلاد العدال الذين يبغون القضاء على نفوذ الأحباش والسيطرة على هذه المنطقة بأكملها ٠٠ وتم الاتفاق بين الفريقين الذين وحدت بينهم العقيدة الدينية والمصلحة المشتركة..ورأى الاتراك فى السلطان احمدبن ابراهيم أمير هرر ٠٠ القوة المحركة التى تستطيع أن تقود الجبهة الجديدة ٠٠ فأيدته وناصرته بالمال والرجال والسلاح ٠٠ واتخذت من تدينه وتقواه وسيلة لاظهاره أمام مسلمى تلك الجهـــات ٠٠ قائدا دينيا يجمع كلمة المسلمين ٠٠ ويسير بهم الى النصر ٠

***

وصلت الى مسامع الاحباش أنباء التحالف الجديد بين الاتراك والمسلمين وحكام بلاد العدال وهرر فأصيبوا بالذعر البالغ ٠٠ وأسرعت ملكة الحبشة ايلينى ( ١٥٢٢ م ) فى البحث عن حليف قوى يقف الى جانبها فى وجــه عدو جديد وصل الى مرتبة كبــيرة من الرقى الحربى والعسكرى لا يمكنها الصمود أمامه ففى الوقت الذى بدأ فيه السلاح الجديد المكون من المدافع والبنادق وسائر المعدات الحربية الحديثة يصل الى أيدى أمراء العدال ٠٠ كان الأحباش لا يزالون يعتمدون اعتمادا كليا على القوس والرمح والسهم ٠٠ ورأت ملكة الحبشة أن تتحالف مع قوة خارجية كبيرة كما فعل أمراء العدال ٠٠ فتطلعت الى البرتغاليين ولا سيما بعد أن سمعت بأنباء انتصاراتهم فى المحيط الهندى ، ولهذا أرسلت الى عما نويل ملك البرتغال برسالة تعرض فيها عليه مبدأ التحالف ضد المسلمين ٠

وكان البرتغاليون يفكرون جديا فى الاستحواذ على مناطق نفوذ فى هذا الجزء فى افريقيا بعد أن أدركوا أهميته عقب استقرارهم فى الهند ٠٠ ولهذا كانت دعوة ملكة الحبشة للملك عما نويل لها وقع طيب فى نفوس البرتغاليين الذين لم يكونوا أقل اهتماما من الأتراك بهذه المنطقة ، وأسرعوا يمدون أيديهم بالمساعدة لملكة الحبشة بصورة جدية ٠

وقد أدرك الأتراك خطر التحالف الحبشى البرتغالى الجديد ٠٠ فعملوا على وجه السرعة لتنفيذ اتفاقهم مع ملوك العدال لتحطيم الحلف المعــادى الجديد والوقوف فى سبيل أغراضه ٠٠ فأمدوهم بالأسلحة النارية الحديثة ووقفوا من ورائهم مؤازرين بالمال والرجال ٠

بدأ السلطان أحمد بن ابراهيم «جرانى» حروبه ضد الحبشة بزحف شامل على قلب بلاد أعدائه ·· يساعده فى ذلك الباشا التركى حاكم زبيد الذى عهد اليه بتزويده بالأسلحة والمدافع ·· ويؤازره شريف مكة الذى كان يمده بالجنود العرب ·

وقعت الغزوة الأولى لجرانى عام ١٥٢٨ من هرر نحو الجنوب الشرقى وكان هدفها السوق الحبشية · دوارو واقليم بالى المتصل بالسوق المذكورة ثم اقليم فاتيجار ·· واقليم فاتيجار اليوم هو بلاد الاينوجالا ، ثم واصل زحفه الى شوا وغندار ·· وملك الحبشة يفر هاربا من بلد الى أخرى وجرانى يطارده ويقتل من الأحباش أعدادا ضخمة ويحرق الكنائس ويخرب المدن ·· وفى العام التالى وقعت بالى أشهر مدن الحبشة فى أيدى جرانى ودخل الكثير من أبناء هذه المدينة الاسلام ·

وبعد أن تم الاستيلاء على كل من دوارو وبالى ·· اتسعت منطقة هرر نحو الجنوب الغربى اتساعا كبيرا ثم تحول جرانى الى شمال الحبشة عام ١٥٣٠ ونفذ الى اقليم تيجرا ·· وفرض الأتاوة على أكسوم وحفلت السنوات التالية لذلك حتى عام ١٥٤٢ بحروب جرانى فى أواسط الحبشة ·· وحروبه فى نفس الوقت ضد البرتغاليين تحت قيادة كريستوفر داجاما ·· وكان هدف جرانى فى سنى حربه الأخيرة الاحتفاظ بما استولى عليه من أملاك اتسعت حتى بلغت شرقى الحبشة وجنوبها برمته ·

وقد آثر ســـكان بعض الأقاليم الحبشية التى فتحها جرانى دفع الجزية والبقاء على دينهم ·· فى حين انضم الى جيشه الظافر عدد كبير من زعماء الأحباش مع أتباعهم ودخلوا الاسلام ·· وقد استغل زعماء المسيحيين الذين دخلوا الاسلام على يد السلطان جرانى نفوذهم الشخصى فى تحريض جيوشهم على الدخول فى الاسلام ، كما اغتنم كثير من المسلمين الذين كانوا قد أقاموا فى الحبشة قبل هذه الغزوة فرصة انتصار هذا الملك المسلم فساعدوه باخلاص على نشر الدعوة الاسلامية ·

وفى أواخر أيام جرانى تحول الحظ ضده ، ففى الوقت الذى اشتدت فيه وطأة هجمات البرتغاليين عليه فى عام ١٥٤٢ بدأت العلاقة تسوء بينه وبين حلفائه الأتراك ، ورفض قبول الامدادات التى كانت ترسل اليه على شكل أسلحة ورجال · ويبدو أنه كان متخوفا من نتيجة علاقاته مع الأتراك، فقد ظن أنه بمجرد انتهائه من حرب الأحباش فانه سيرغم على خوض غمار حرب أخرى ضد حلفائه ، ولهذا رأى أن ينتهز فرصة انتصاراته ليطيح بصداقته للأتراك ، ففقد بذلك ركنا هاما كان يعينه فى حربه ، وبانتهائه آذنت دولته بالزوال .

وكانت مهمة خلفاء السلطان جرانى هى المحافظة على حدود الامارات العربية من الأعداء المتربصين بها الدوائر ·· وحمايتها من غاراتهم المتوالية ·· وتركز كفاحهم فى المناطق الداخلية وجزء من الساحل الذى لم يفرض عليه الأتراك حمايتهم اذ تمكن الأتراك أيام تحالفهم مع السلطان جرانى من وضع أيديهم على موانى مصوع وسواكن وبربره ووصلوا الى مدينة دباروه وتوغلوا فى المدن الساحلية فى الشرق ·

وقد نجح خلفاء جرانى فى الاحتفاظ بسلطان العرب على الامارات الاسلامية طوال ثلاثة قرون أى حتى القرن التاسع عشر ، وكانت هذه القرون الثلاثة تمثل كفاحا بين قوى متفككة تتمثل فى الامارات العربية ومنافسين أقوياء يتمثلون فى الأحباش ومؤيديهم ، ومع ذلك استطاع العرب الاحتفاظ بسلطانهم حتى هذا التاريخ ·

***

وفى منتصف القرن التاسع عشر ·· شهدت منطقة شرقى افريقيا ·· كما شهدت مناطق أخرى فى هذه القارة صراعا من نوع جديد كان أبطاله دول أوربا الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا وايطاليا وبلجيكا وألمانيا والبرتغال ·· سعى كل منها الى خلق مناطق نفوذ له تمده بالمواد الأولية التى تحتاج اليها النهضة الصناعية فى أوربا نتيجة للاكتشافات الحديثة التى اجتاحت هذه القـــارة ·· وفى الميدان الافريقى كان الصراع الذى لا يعرف المهادنة ·· وكانت الاتفاقيات السرية بين كل دولة وأخرى على توزيع مناطق النفوذ ·

وفى منطقة شرقى افريقيا وساحل البحر الاحمر الغربى ·· احتدم النزاع بين الدول الأوربية على نحو سنفصله فيما بعد ·· وباتت مناطق الصومال والسودان الشرقى فى مهب العاصفة ·· ورأت مصر أن تدعم مركزها فى سواحل السودان وتحمى جيران لها تجمعها بهم أواصر اللغة والدين والعروبة فى مناطق الصومال فمدت يدها اليهم بناء على رغبات أكيدة أبدوها فمدت الادارة المصرية الصومال وهرر لتحمى هذه الجهات من جشع الاستعمار المتربص بها الدوائر ·

ونجحت مصر فيما هدفت اليه ·· وفى الوقت الذى كانت مناطق عدة من القارة الافريقية يبتلعها الاستعمار فريسة سهلة ·· كانت المناطق التى امتدت اليها الادارة المصرية تنعم برخاء تام وحياة كريمة استمرت فترة من الزمن ·· الا أن القدر لم يدم لها هذا الذى سعدت به وذلك حين ابتليت مصر بالاستعمار البريطانى لأراضيها عام ١٨٨٢ ·· ولم تعد تملك من أمر نفسها شيئا وتحت ظروف ضعف سياسية اضطرت الى اخلاء ما كانت ادارتها تدير مقاليده فى السودان والصومال وهرر وأجزاء أخرى

من افريقيا وبدأت الدول الأوربية الاستعمارية تسعى للظفر بهذه المناطق العامرة بالاصلاحات الحافلة بالتقدم •

***

وثمة حقيقة هامة يجب تأكيدها في هذا المجال •• وهى أن الادارة المصرية حينما امتدت الى بعض أجزاء من بلاد الصومال لم تحمل فى طياتها أى لون من ألوان السيطرة أو الاستعمار كما صورت ذلك الدوائر الأوربية الاستعمارية •• ولم تكن ترمى الى الهيمنة وتوسيع مناطق النفوذ والاستيلاء على بلاد وفيرة الخيرات والمواد الأولية للاستفادة من هذه الموارد •• كما كان الغرض من وراء التوسع الأوربى ؛ بل كان الأمر غير ذلك تماما ، والوثائق الرسمية المحفوظة فى أرشيف عابدين ولندن وروما وغيرها تثبت أن امتداد الادارة المصرية الى هذه الجهات كانت بناء على رغبة أهليها الذين أفزعهم التوغل الاستعمارى الأوربى ورأوا فى ادارة مصر الشقيقة خير ما يحميهم من هذا الأخطبوط الذى يتهددهم •• فطلبوا من القاهرة عن طريق رؤسائهم ومشايخهم هذا الأمر ••وليس أدل على صدق هذا القول ذلك الاستقبال الحافل الذى كانت تستقبل به القوات المصرية حين دخولها هذه الأقاليم ثم ذلك الوداع المؤثر الذى ودعت به حينما صدرت اليها الأوامر بمغادرتها بناء على ضغط الدول الاستعمارية •

لقد تركت الادارة المصرية خلال فترة قصيرة لا تزيد عن الخمسة عشر عاما آثارا ضخمة فى شى المرافق والمجالات فى مدن الصومال وقراه .. فمن تشجيع للزراعة وزيادة مساحة الأرض المزروعة وادخال مزروعات جديدة الى ازدهار فى الصناعة والتجارة بشكل لم تشهد له البلاد نظيرا من قبل ، فقد أدخلت صناعات جديدة تعتمد على المواد الأولية الموجودة ونشطت الموانى التى استحدث المصريون فيها أحدث الأساليب كالأرصفة والفنارات لتستقبل الواردات وتصدر الصادرات ، وعنى المصريون بالتعليم فأنشأوا المدارس وأوفدوا بعثات من أبناء هذه البلاد للدراسة فى الأزهر •• كما وجهوا اهتمامهم بالحالة الصحية فأنشأوا المستشفيات فى المدن الهامة والمستشفيات المنتقلة تجوب القرى وكان يشرف عليها أطباء من القاهرة لمقاومة الأمراض والأوبئة • كذلك أنشأ المصريون مدنا جديدة وأدخلوا التحسينات على المدن القديمة بما أقاموه من مبان ومنشآت على أحدث طراز لا زال بعضها قائما يحكى تاريخ هذه الفترة الذهبية فى تاريخها •

***

وعلى العموم •• لم تترك الادارة المصرية سبيلا للاصلاح الا وطرقته فى هذه البلاد لصالح أبنائها وسخرت فى هذا امكانياتها المادية والأدبية

حتى أصبحت هذه الجهات تضارع أرقى المدن فى ذلك الوقت ، الأمر الذى دفع الدول الاستعمارية الى التفكير للظفر بهذه الغنيمة الباردة التى تتمتع بما لا يتوافر فى غيرها . وفى نفس الوقت أثمرت الادارة المصرية فى خلق وعى قومى شامل لهذه البلاد لم يكن موجودا فى غيرها من الدول الافريقية، فلقد عرف المواطنون فى الصومال معنى الحرية وعشقوا أساليب الحضارة والمدنية التى أدخلها المصريون ، فكان من الصعب ارغامهم على قبول الأوضاع التى أراد الاستعمار فرضها عليهم فيما بعد ومن هنا تعددت ثوراتهم ضد الحكم الاستعمارى وأساليبه الباطشة .. وقام ثوارهم أمثال محمد ابن عبد الله الحسن وغيره ليقاوموا هذا التحكم وليقضوا مضاجع الاستعمار فى كل وقت ، فلم ير لحظة هناء أثناء حكمه هذه البلاد على عكس ما وجده فى بلاد أخرى من خنوع واستكانة ..

ولا نريد هنا أن نشيد بفضل الادارة المصرية البارة على هذه الجهات ولكن نريد أن ننفى ما أراد الاستعمار الأوربى الصاقه بها من أنها ادارة استعمارية . وهذه الأعمال الهائلة التى ذكرنا بعضها تفند هذه المزاعم والأباطيل ..

هذه هى صورة من الحالة التى كانت عليها بلاد الصومال فى الفترة التى عاصرت مولد بطل كفاحها فى العصر الحديث وقائد ثورتها التحررية ضد الاستعمار محمد بن عبد الله الحسن .

# الفصل الثاني
## وسط دوامة الاستعمار

نشأ محمد بن عبد الله حسن كما ينشأ أبنـــاء الاسرة الصومالية الأصيلة على الدين والورع فالتحق وهو فى طفولته بكتاب القرية لتلقى مبادىء القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن حتى أتقنه فى سن مبكرة وشبت معه غريزة اكتمال الشخصية وهو لايزال صـــبيا فكان يرتاد مجالس الشيوخ والعلماء والقضاة ليأخذ عنهم التفقه فى الدين والحجة فى المنطق والقوة فى التأثير ، ويستكمل مقوماته التى توصله الى مبلغ العلمـــاء والمتفقهين ، وقد استطاع بذكائه وسرعة استجابته أن يخلق لنفسه مكانا مرموقا على مر الأيام بين أهل الفقه والدين ، فملأ بشخصيته قلوبهم مما دفعهم الى احترام شـــخصه ، والأخذ برأيه وعن طريق صلاحه وتقواه وولايته اكتسب اسم الوداد ، وهى باللغة الصومالية تعنى القاضى أو الواعظ أو الفقيه أو المفتى ٠

وشأنه شأن شباب الصومال ٠٠ كان عليه أن يمارس مهنة يدخل فيها عنصر الرياضة فكانت هنـاك مهنة الصيد والفروسية والملاحة وغير ذلك ، وقد اختار هو حرفة الملاحة التى مارسها عدة سنوات أكسبته قوة فى البنية واصرارا على مواجهة الخطوب ٠

رأى محمد بن عبد الله حسن بعد هذه المرحلة من سن الشباب أن يصقل ثقافته الدينية ، فقرر الذهاب الى بلاد الحجاز حيث يجتمع شـيوخ أفاضل من مختلف بلاد العالم الاسلامى فيستزيد بعلمهم ٠ وسافر الى مكة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وهو يأمل فى أن يكون من علماء الطليعة التى اشتهرت بلاد الحجاز بتخريجهم آنذاك ٠٠ فكانوا من أعلام الدين والتصوف والكفاح الذين تركوا أثرا بالغا فى حياة بلادهم وشعوبهم ، وقادوا ثورات تحررية اجتمعت فيها عناصر التضحية والفداء مع الايمان والعزيمة ، وفعلا نجح الملا فى تحقيق رغبته وما هى الا سنوات قليلة حتى

كان يكمل هذا العقد الفريد الذى انتظم الحـــركة الوهابية فى الحجاز والحركة السنوسية في ليبيا ٠٠ والحركة المهدية فى السودان ٠

وكان من أبرز أساتذة ثائر الصومال ٠٠ الشيخ محمد صـــالح السودانى الذى لقنه أصول الاستبسال فى سبيل نصرة الدين والوطن ، وكان ينقل اليه أخبار ثورة عرابي فى مصر وثورة المهدى فى السودان وكيف توحدت أهداف الثورتين في استخلاص الوطن لبنيه من حكم الدول الاستعمارية وسيطرتها ، ومكافحة النفوذ الأجنبى الذى بدأ يغزو بلادهما فى صورة طوفان عارم ٠

وفى عام ١٨٩٥ استقر به المقام فى ميناء بربره كخليفة للشيخ محمد صالح صاحب الطريقة الصالحية وعمل على نشر تعاليم هذه الطريقة وعلى تعليم الأهالى أصول العبادة والتقرب من الله ، ولم يشأ أن يقصر جهوده على مكان واحد ، فكان انتقاله الى مدينة كيرت ، وهناك أقام مسجدا ليلتقى فيه بتلاميذه ومريديه وبعد أن استقرت دعوته واشتهر اسمه فيها قرر الرحيل الى كوب فارادود فى وادى السنولى موطن أمه حيث أقام هناك مسجدا أيضا لنفس الغرض ٠

وكانت سياسة الملا تتركز فى ضرورة جمع كلمة الصوماليين وتوحيد صفوفهم لمواجهة العدو المشترك وهو الاستعمار وذلك تحت قيادته كزعيم دينى يقدر مصلحة وطنـــه ومواطنيه ٠ وشعر وهو بصدد تحقيق هذه السياسة أنه لا محالة من اصطدامه بالزعماء القبليين الذين يسيطرون على أنحاء الصومال كل فى دائرة نفوذه ٠ وكما هو معروف فى المجتمعات الافريقية آنذاك كانت القبيلة تشكل أساس المجتمع ، ورئيسها دعامة هذا الأساس تجتمع فى يده السلطات ويعتبر المرجع النهـــائى فى كل الأمور ٠٠ ومسألة خروج أحد اختصاصاته أو أهمها وهى الزعامة الى يد أخرى معناه انقلاب خطير فى الحياة الاجتماعية لا يرضى عنه على الاطلاق لما فيه من تقليل من هيبته ونفوذه ٠

بدأ محمد بن عبد الله حسن طورا جديدا من أطوار كفاحه وهو جمع الصوماليين الى زعامته الدينية داخلا بذلك فى منافسة خيرة مع زعمـــاء القبائل الذين يحرصون على دوام ولاء الصوماليين لزعامتهم القبلية والابقاء على ركائز المجتمع بوضعها الذى ألفه الناس ٠ وكانت الحرب بين الفريقين حربا بين مبدأين ٠٠ كل له أنصاره ومؤيدوه ٠

وقد ظل هذا الوضع شوكة فى حلق بطل الصـــومال طوال أيام كفاحه ضد الاستعمار الذى عانى منه الكثير وخاصة أن عداوة زعمـــاء القبائل له ٠٠ استلزمته الحرب في جبهتين ٠ ٠جبهة فى الداخل ضد

دسائسهم ومناوراتهم ضده ، وافسادهم خططه ومشاريعه ، وجبهة فى الخارج قوامهـا الدول الاستعمارية التى اقتسمت أرض مصر ، وزعماء القبائل هؤلاء الذين ساندوا الاستعمار واتجهوا نحوه ليجدوا فيه ما يعوضهم عن نفوذهم الذى أفقدهم اياه زعيم ثورة الصومال وغريم الاستعمار ٠

ويذكر البعض أنه لولا تكاتف زعماء القبائل مع دول الاستعمار لتحقيق أغراض شخصية زائلة لانتصر الملا فى وقت قصير وخاصة أنه ظل مسيطرا على داخل البلاد لمدة عشرين عاما تقريبا اضطر خلالها الاستعمار الانجليزى الى الهرب لمناطق الساحل وتركيز قواته هناك فرارا من هجماته المتعددة والتفاف العناصر الوطنية التى أيقظها الوعى والادراك حوله ٠٠ وحرصها على نجاح ما هدف اليه من اجلاء المستعمر عن أرض الصومال تلك التى اقتسمها الاستعمار وجعل منها الصومال الانجليزى والصومال الفرسى والصومال الحبشى والصومال الايطالى ٠

وجدير بنا أن نوضح مراحل السياسة الاستعمارية التى انتهت الى هذا التقسيم وذلك قبل أن نواصل الكلام عن مرحلة النضال التى حمل لواءها ثائر الصومال ضد هذه القوى ٠

كان التسابق الامبريالى الأوربى على امتلاك أجزاء من افريقيا عامة .. وساحلها الشرقى خاصة ٠٠ من الاسباب المباشرة التى أدت فى النهاية الى انسحاب مصر من هرر والصومال عام ١٨٨٥ تحت ضغط احدى الدول الاستعمارية المتنافسة وهى بريطانيا ٠٠ التى أرغمت مصر على اخلاء هذه المناطق ..وقد حالت الظروف آنذاك دون تملك بريطانيا للصومال وهرر.. كما سنبين فيما بعد فتركت هذه الجهات بضع سنوات تتأرجح بين أطماع دول الاستعمار المصطنعة فى شرق افريقيا على خلق مناطق نفوذ لها ٠٠ وتملك قواعد ارتكاز فيها ٠

وقد جاء هذا التحول السريع فى السياسة الأوربية الامبريالية بالنسبة لافريقيا منذ عام ١٨٨٠ ففى تلك السنة بدأت الدول الأوربية تدخل هذه القارة فى نطاق سياستها ٠٠ وأخذ الأوربيون فى بسط سلطانهم على أجزاء فى أفريقيا ، فأخذ البلجيكيون الكونغو واستولت فرنسا على تونس واحتلت انجلترا مصر ٠

وباحتلال انجلترا لمصر ٠٠ أصبحت أملاك الأخيرة على ساحل البحر الأحمر وفى شرق افريقيا هدفا لأطماع الاستعمار ٠٠ ومركزا جذب اليه أنظار رجال السياسة والحرب والأعمال والاقتصاد ٠ وقد ساعد على ذلك عدة عوامل كان أهمها أن مصر قد هيأت هذه الجهات لتقبل الحضارة ٠٠

وأدخلت فيها أسباب العمران فشجعت الزراعة والتجارة ونشرت التعليم وسائر مرافق الإصلاح الأخرى .

* * *

وكانت أملاك مصر في هرر وساحل الصومال والبحر الأحمر ليست ذات أهمية بالنسبة لبريطانيا فحسب بل بالنسبة لفرنسا أيضا التى كانت مشتركة معها في الاشراف المالى على مصر وعضو معها فى اللجنة الثنائية .. وجميع اللجان التى ألفت للاشراف على مالية مصر ـ وعلى هذا اشتركت كل من الاغراض الاستراتيجية والتجارية ـ فى تحويل أنظار الانجليز والفرنسيين الى البلدان التى امتدت اليها الادارة المصرية فى شرق افريقيا والبحر الأحمر أى الى طريق التجارة الحيوى الى الشرق .. وبذلك انتقلت أضواء السياسة الانجليزية والفرنسية الى هذه المنطقة .

وفى هذا الوقت .. كانت ايطاليا الدولة الناشئة .. قد استكملت وحدتها السياسية منذ عهد قريب .. وأخذت هى الأخرى تتطلع الى التوسع الخارجى فى افريقيا مقلدة الدول الكبرى .. وقد تطلعت ايطاليا فى بادىء أمرها للاستيلاء على تونس لقربها للأراضى الايطالية .. لكن فرنسا قضت على أطماع ايطاليا فى تونس .. ومن ثم عاودت ايطاليا الكرة فى ميدان آخر علها تجد فيه بغيتها ويكون مجالا لتوسعها فى افريقيا الشرقية تعوض به خسارتها السابقة فى تونس .

* * *

وكانت من أولى آثار هذا الاتجاه الجديد فى السياسة الامبريالية الأوربية فى ساحل البحر الأحمر وشرق افريقيا .. أن تشابكت مصالح فرنسا وانجلترا فى منطقة واحدة .. وأخذت هذه الدول تتنافس على مناطق نفوذ فى هذه المنطقة .. وأخذ كل من هذه الأطراف الثلاثة المتسابقة يعمل على كسب أرض جديدة له .

وتذكرت فرنسا فجأة عام ١٨٨١ أنها كانت قد اشترت من عشرين سنة أى فى عام ١٨٦٢ منطقة أوبوك على خليج تاجوره .. وظلت هذه المنطقة مهملة لم تهتم بها فرنسا الى أن كان عهد التسابق الاستعمارى فى افريقيا فأسرعت فرنسا لتستفيد من أوبوك .

وقد ظهر أن لهذه المنطقة فائدة مزدوجة .. فهى تقع على مخرج بوغاز باب المندب .. وبذلك فهى مركز استراتيجى مهم يسيطر على الطريق الى الشرق .. ثم انها فى نفس الوقت منطقة تصلح مركزا للتجارة مع الداخل .. أى مع هرر ومملكة شوا .

وهكذا اتضحت أهمية أوبوك وفائدتها .. فأسرعت فرنسا لاستغلال هذه الفرصة فأرسلت قوة لاحتلالها وتم لها ذلك ٠٠ ولم يقف الفرنسيون عند هذا الحد ٠٠ بل رأوا أن يوسعوا دائرة نفوذهم بجـــانب أوبوك وواتتهم الفرصة الطبيعية ففى هذه الأثناء كان الزعماء المحليون يعملون على التخلص من أملاكهم ومسئولياتهم خوفا من الاستعمار الأوربى وفرارا بأموالهم من طريقه ٠٠ وكان أحمد بن محمد سلطان تاجوره من هؤلاء الذين عملوا على التخلص من مسئولياته ٠٠ فتفاوضت معه فرنسا على شراء خليج تاجورا ٠٠ وتم ضمه الى أملاك فرنسا ٠

وكان ظهور النشاط الفرنسى فى منطقة أوبوك عام ١٨٨١ وامتداده الى منطقة تاجورا أمرا أزعج رجال الأعمال ورءوس الأموال الايطالية ٠٠ فقد كان هؤلاء يتطلعون الى هذه المنطقة لامتلاك مراكز فيها بعد أن تحطمت آمالهم فى تونس على أيدى الفرنسيين ٠٠ ولكن ايطاليا صممت على ألا تلاقى فى البحر الأحمر المصير نفسه الذى سبق أن لقيته فى تونس ، وأن تعمل على خلق مركز لها فى هذه المنطقة مهما كلفها ذلك من ثمن ٠

وتذكرت ايطاليا هي الأخرى ٠٠ أنها كانت قد اشترت منذ عـام ١٨٦٩ موقعا قريبا من أوبوك يقع شمال تاجوره ويعرف بخليج عصب ٠٠ كان قد اشتراه الايطاليون من السلطان المحلى ٠٠ فأرسلت ايطاليا قوة لاحتلال عصب التى دخلت تحت السيادة الايطالية ٠٠ فاذا كانت فرنسا قد اشترت أوبوك وسيطرت على خليج تاجوره فان ايطاليا قد اشترت خليج عصب وسيطرت عليه ٠

* * *

وكان ظهور النفوذ السياسى لكل من فرنسا وايطاليـــا فى هذه المنطقة من ساحل الصومال أمرا أثار اهتمام انجلترا ٠٠ لانهـــا تقع فى الطريق الى الهند ٠٠ ومن الأمور التى تحرص عليها بريطانيا تأمين طريقها الى الهند والحيلولة دون تعرضه للوقوع فى أيد غير بريطانية ٠٠ وكان لابد لبريطانيا أن تعمل على رعاية مصالحها وهى صاحبة امبراطورية الهند ويهمها الأسواق التجارية فى افريقيا من ناحية ٠٠ وطريق المواصلات الى امبراطوريتها الواقع فى افريقيا من ناحية أخرى ٠

وهكذا بدأت أهداف كل من فرنسا وايطاليا وانجلترا السياسية فى ساحل البحر الأحمـر وشرق افريقيا تتضـــارب وتتعرض لخطر الاحتكاك ٠

* * *

أما عن السياسة البريطانية فى هذه المنطقة من افريقيا ٠٠ فانها

مرت بلحظات حرجة في الفترة من عام ١٨٨٠ ــ ١٨٨٥ ·· ففى الوقت الذى كانت فيه فرنسا توطد أقدامها فى أوبوك وخليج تاجوره وكانت ايطاليا تبعث بقواتها لاحتلال عصب ومملكة السلطان برهان ·· كانت انجلترا تعد عدتها لاحتلال مصر عام ١٨٨٢ ·

وكان يتجاذب السياسة الانجليزية ــ عامل الواقع وعامل السياسة التى كانت تسير عليها حكومة الأحرار فى بريطانيا ·· فبالنسبة للعامل الأول ·· وجدت انجلترا كلا من ايطاليا وفرنسا تنفذان سياستيهما الاستعمارية لامتلاك مناطق على ساحل البحر الاحمر وساحل افريقيا الشرقى ، فلو وقفت هى مكتوفة الأيدى لضاعت هذه المنطقة كلها من يدها ولتهدد من ثم طريقها الى الهند · أما بالنسبة للعامل الثانى فان وزارة الأحرار برياسة جلادستون كان من أهم مبادئها مقاومة التوسع الاستعمارى ·· واذا كان لابد من التوسع فيكفى احتلال بريطانيا لمصر ·

وانتصرت سياسة الواقع ·· واضطرت وزارة جلادستون الى الدخول فى ميدان التوسع الاستعمارى مخالفة بذلك مبادئها ·· ورأت بريطانيا أن تحتل جزءا من ساحل الصومال حتى تمنع التوسع الايطالى الفرنسى ، وعملت حسابها أن يكون توسعها على حساب أملاك مصر فى هذه المنطقة ·· أو الاملاك التى تدعيها لمصر فيها · ·وخاصة بعد أن أصبحت مصر واقعة تحت سلطانها · ومن ناحية أخرى ·· رأت انجلترا أن ملكية مصر وحقوقها فى ساحل الصومال وشرق افريقيا لم تمنع ايطاليا من احتلال عصب ·· ولم تحل دون سيطرة فرنسا على أوبوك وتاجوره ·

وبدأت بريطانيا تعد عدتها لمنع تسرب باقى ساحل الصومال الى أيدى فرنسا وايطاليا ورأت أن تسيطر على منطقة هامة ·· هى عصب الساحل ــ وهى منطقة هرر فقد نظرت اليها كمركز هام للتجارة وكنقطة استراتيجية بالنسبة لساحل الصومال كله ·· فأخذت بريطانيا تعد عدتها للانقضاض على هرر ومن ثم دخلت هذه المنطقة الى محور السياسة الأوربية الاستعمارية ··

***

وكان أهم ما أسفر عنه التنافس الاستعمارى بين الدول الأوربية على تملك مناطق نفوذ لها فى افريقيا ــ الاحتلال البريطانى لمصر ــ مصر التى كانت تسيطر آنذاك على ساحل البحر الأحمر وبلاد الصومال وهرر والسودان ·· وأصبحت بريطانيا ترى أنه بحكم وضعها الجديد كدولة احتلال لها حق السيطرة على أملاك مصر ·· وبهذا وضعت الدول المنافسة لها وخاصة فرنسا أمام الأمر الواقع ·

صحيح أن انجلترا كانت قد أعلنت أكثر من مرة أن احتلالها لمصر انما هو احتلال مؤقت وذلك ذرا للرماد فى العيون ·· حتى تتمكن من ترتيب أمر استعمارها لمصر وأملاكها ·· وفى الوقت نفسه لم تستطع بريطانيا اخفاء قلقها على تنفيذ سياستها الاستعمارية قبل فوات الأوان وخاصة أن دولا غيرها بدأت تسعى لتحقيق هذه السياسة ·· واقتربت فى مناطق نفوذها من أملاك مصر فى ساحل البحر الأحمر وشرقى افريقيا ·

وعلى هذا الاساس وجهت بريطانيا همها الى ساحل الصومال وهرر لتنفيذ سياستها الاستعمارية فى أملاك مصر على الساحل ·· وتلك التى تقع أيضا عند منابع النيل·· فمصر مرتبطة بالنيل·· وتحتوى أثيوبيا على جزء هام حيوى من منابع النيل ·· ولم يكن هناك تهديد حقيقى آنذاك بالنسبة لمصر والنيل طالما أن مناطق الحبشة فى أيدى أهلها ·· وهؤلاء لا تسمح لهم حالتهم وامكانياتهم وقوتهم بالتحكم فى مياه النيل ·· ولكن الأمر يختلف كلية اذا سيطرت على أثيوبيا أو هرر أو الصومال دولة أوربية قوية ، فانها فى هذه الحالة تستطيع أن تضر بمصالح مصر ·· التى هى تحت سيطرة بريطانيا ·· وهذا ما حرصت بريطانيا للحيلولة دون وقوعه ·

***

ويلاحظ أنه عندما احتلت انجلترا مصر ·· منعت فرنسا من القيام بمثل هذا العمل من ناحية الشمال وقد شعرت انجلترا بتهديد فرنسا لها ومحاولتها التوغل فى حوض النيل ·· وتهديد مصر من ناحية الجنوب · ·والجنوب الشرقى ·· أى أنه اذا كانت انجلترا قد أمنت لصالحها حوض النيل من ناحية الشمال فانها لم تؤمن حوض النيل من الجنوب الشرقى من خطر التهديدات الفرنسية ·· وتوسع فرنسا فى منطقتى أوبوك وتاجوره ·· ولم تقابل انجلترا هذا التوسع الفرنسى بارتياح ·· لأنها وجدت فيه خطرا شديدا · اذ من المحتمل أن تنجح فرنسا فى أى وقت من الأوقات فى مباشرة توسعها وربما نجحت فى التوغل فى أعالى النيل فتسيطر بعد ذلك على منابعه ·

لهذا كله ·· أصبح من أهم أهداف السياسة البريطانية السيطرة على منابع النيل سواء تلك التى تقع فى الحبشة أو فى منطقة البحيرات الاستوائية ، وهذا لا يتم الا بالسيطرة على أوغنده وبحر الغزال وهرر والحبشة والصومال ·· أو على الاقل تمنع أية دولة أوربية من أية سيطرة على هذه المناطق والحيلولة دون تملكها لها ·

***

وكان ظهور النفوذ الفرنسى فى منطقتى أوبوك وتاجوره .. ثم سعى ايطاليا لايجاد منطقة نفوذ لها فى عصب يعنى احتمال توسع احدى هاتين الدولتين أو كليهما فى الحبشة وهرر .. واخضاع احدى مناطق منابع النيل لقوة أوربية منافسة لانجلترا .

ورأت انجلترا أن تدخل ميدان التوسع الاستعمارى بصورة سافرة عن ذى قبل .. فاستغلت الحوادث لكى تنفذ أغراضها تدريجيا وبصورة دقيقة منتظمة .

استغلت الأزمة المالية فى مصر لتتدخل فى شئونها ... واستغلت الثورة العرابية لتحتل مصر .. واستغلت الثورة المهدية فى السودان لتفنى الجيش المصرى فى حملة هكس .. واستغلت هزيمة هكس الساحقة أمام قوات المهدى لتطلب من الحكومة المصرية الواقعة تحت سيطرتها اخلاء السودان وملحقاته .

واستغلت اخلاء السودان وملحقـــاته للوثوب الى هـــذه الأملاك والانقضاض عليها وضمها الى دائرة نفوذها .

كل هذا أقدمت عليه بريطانيا وقامت بتنفيذه مستغلة براعتهـــا ودهاءها فى التمويه .. فأحاطت هذه العمليات السريعة بســـياج من الحرص والادعاء الكاذب بالمحافظة على أملاك مصر وذلك حتى تتخلص من منافسة الدول الاستعمارية المتزاحمة معها على امتلاك قواعد فى هـــذه المنطقة .

* * *

وقد أصبح الموقف كالتالى بعد صدور القرار باخلاء هرر والصومال وملحقاتهـــا من الادارة المصرية . بالنســـبة لزيلع .. طلبت الحكومة البريطانية عن طريق سفيرها فى الآستانة من الحكومة التركية فى ١٤ من مايو ١٨٨٤ أن تبادر هذه الحكومة باستئناف ممارسة حقوق السيادة على الموانى التى كانت خاضعة للادارة المصرية على ساحل البحر الأحمر الغربى وأن يحتل جنود عثمانيون هذه الموانى فورا .. ثم عادت فى ١٧ من مايو فطلبت من الباب العالى أن يتخذ الخطوات الضرورية لفرض سيطرته على ميناء زيلع وميناء تاجوره بمجرد انسحاب القوات المصرية منها .. وكان هذا الذى طلبته بريطانيا لايعنى حرصها على الدولة العثمانية وأملاكها بل كانت رغبة منها فى أن تبعد التنافس الاستعمارى الأوربى عن هذه الموانى بوضعها تحت اشراف أصحابها الشرعيين .. وذلك الى أن تحين الفرصة المناسبة ليتم استيلاؤها — أى بريطانيا — عليها .

وقد قررت بريطانيا تنفيذ هذا الأمر وقامت باحتلال ميناء زيلع ..

وكان أمر زيلع ينطق بغرابة تصرفات السياسة البريطانية ٠٠ اذ بالرغم من امتلاك بريطانيا لهذه المنطقة منذ عام ١٨٨٤ فانهـــا أرغمت الحكومة المصرية التى أخلت زيلع وهرر على دفع مرتب نائب القنصل الانجليزى ونفقاته ونفقات الادارة فى زيلع ٠٠ كما ظلت الحكومة المصرية تدفع للباب العالى مبلغ ـ ١٥٫٠٠٠ جنيه مقدار الجزية السنوية عن زيلع المحتلة ولما اعترضت مصر على هذا الوضع ٠٠ كان رد بريطانيا أنهـــا ترى أن مصر ليس لها أن تشكو منها ٠٠ فلسنا مسئولين عن صفقة عام ١٨٧٥ الخاسرة لأن زيلع لا تغطى نفقاتها ٠

***

أما ايطاليا ٠٠ فقد حولت ميناء عصب فى يونيو ١٨٨٢ الى مستعمرة ايطالية وقدم بذلك قانون الى مجلس النواب الايطالى ٠٠ وفى يناير ١٨٨٥ احتل الطليان بيلول شمال خليج عصب وطردوا الحامية المصرية منها بعد أن جردوها من السلاح ٠٠ وفى شهر فبراير من نفس السنة ٠٠ قررت ايطاليا بالاتفاق مع بريطانيا احتلال مصوع وبسط حمايتها على الساحل من عصب الى مصـــوع ٠٠ وكان ذلك مبدأ تأسيس ارتريا وقد جاء فى وثائق وزارة الخارجية الانجليزية أنه فى يناير ١٨٨٥ أعلن وزير خارجية روسيا وسفير انجلترا فى بطرسبرج بأنه لم يكن هناك أى أساس أو ذريعة تخول ايطاليا الحق فى الاستيلاء على بيلول أو مصوع ولا سيما أن كلا من البلدين كانت تحتله حامية مصرية ٠٠ ولا شك فى أن عمل ايطاليا يعد مخالفة لروح المعاهدات القائمة ٠

وفى شهر ديسمبر عام١٨٨٥ تم للايطاليين دخول مصوع واحتلالها وطردوا الحامية المصرية منها بعد أن استولوا على ذخيرتهم ومؤنهم وجميع أملاكهم ٠٠ ولما طالبت مصر ايطاليا بتعويضات سلكت ايطاليا مسلكا يشابه ذلك الذى اتبعته بريطانيا عقب استيلائها على زيلع ٠٠ اذ رفضت أن تدفع أى تعويض ٠٠ وأكثر من ذلك ٠٠ كانت مصر تدفع للباب العالى مبلغ ١٧٫٠٠٠ جنيه مصرى جزية سنوية نظير التنازل عن مصوع وظلت مصر ـ بعد احتلال الطليان لهذا الميناء تدفع هذا المبلغ ٠

***

أما فى تاجوره ٠٠ فقد عقد الفرنسيون مع أحد مشايخها معاهدة فى ١٧ من مارس ١٨٦٢ تخول لفرنسا نظير مبلغ من المال الحق فى امتلاك أوبوك والمنطقة المجاورة لها والبالغ مساحتها ٢٥ ميلا مربعا فى خليج تاجوره ٠٠ وانتهزت فرنسا فرصـــة القرار الذى صدر باخلاء هرر من الادارة المصرية فبعثت بمركب فرنسى الى ميناء ورشال القريب من تاجوره فى أوائل مايو عام ١٨٨٤ وقد مهد وصوله لضم تاجوره نهائيا الى فرنسا

وهناك اتجاه هام أثر فى مجرى السياسة الأوربية نحو أملاك مصر فى هرر والصومال وكان هذا الاتجاه هو الاتجـــاه التجارى ٠٠ فقد انتصرت سياسة الاستعمار الاقتصـــادى على كل سياسة أوربية أخرى وخاصة بالنسبة لبريطانيـــا التى سعت للاستيلاء على جزء كبير من الساحل لاستعماله فى الأغراض التجارية ٠٠ وقد عرف بالصـــومال البريطانى ويمتد من زيلع الى بندر زيادة ٠

وفى الوقت الذى وضعت فيه انجلترا يدها على هذا الجزء ٠٠ ذهبت فرنسا الى أوبوك ودعمت سيادتها عليها لاحتمال تحول هذا الميناء الى مركز للتجارة مع هرر ٠

ومنذ هذا الوقت ٠٠ بدأ التنافس القوى يأخذ دوره فى العلاقات بين فرنســا وانجلترا وكان هدفه السيطرة على أسواق هرر والصومال والموانى الواقعة على الساحل لتصدير واستقبال السلع المختلفة ٠٠ وقد استمر هذا التنافس الاقتصادى بين الدولتين فترة ٢٢ عاما ودخلت فى هذا الميدان ايطاليا كطرف تسانده بريطانيا للوقوف فى وجه الأطماع الفرنسية ٠٠ والملاحظ أن هذه المنافسة الاقتصادية قد تركزت فى منطقة الصومال عامة وفى مقاطعة هرر خاصة ٠٠ يوصد بها الطريق الطبيعى للتجارة فى الشرق ٠٠ والمركز العـــام الذى تلتقى فيه طرق التجـارة والقوافل من الساحل الى الداخل وبالعكس ٠

وربما كان الانجليز يرغبون منذ البداية فى الاستيلاء على المناطق التى أخلاها المصريون وهى موانى ساحل البحر الأحمر الغربى واقليم هرر ٠ ولا غرو فى ذلك فان قرار اخلاء هرر الذى أرغموا حكومة مصر على قبوله وتنفيذه كان تمهيدا ليستأثروا هم بهذه المناطق ٠٠ وقد تسلم الانجليز الســـيادة على بربره فى الصيف والخريف ١٨٨٥ وتمت هذه العملية بهدوء تام ٠

❊ ❊ ❊

وكان الأمر على غير ذلك فى زيلع ٠٠ فقـــد اصطدمت المصـــالح البريطانية مع مصالح حاكم ميناء زيلع أبو بكر شحيم الذى كان موضع تعظيم قبائل الدناكل التى تقيم فى هذه المنطقة وكان من رأى هذا الحاكم أن تظل زيلع تحت الادارة المصرية وأصر هو وأفراد أسرته الكبيرة العدد على الاستمساك بهذه الادارة ومنع محاولة أية ادارة أخرى تحاول النفاذ اليهم وخاصة ان كانت بريطانيا ٠٠ فقد كشف نوايا بريطانيا لديه وتبينت له أعمالها العدوانية ضد المواطنين وضد سلامة المنطقة كلها ٠٠ وذلك حتى تخلق الجو المناسب لها للسيطرة على هذه الجهات ٠

وهكذا كانت ميول أبو بكر شحيم واضحة نحـــو تأييد أية دولة

أوربية أخرى تنافس انجلترا فى هذه المنطقة فقد كانت رغبته أكيدة فى محاربة الاستعمار الانجليزى الذى أخذ يسعى الى بلاده عن طريق بث الدسائس والفتن بين الأهالى •

لم يكن من السهل أن تسلم فرنسا لبريطانيا بهزيمة نفوذها الذى ظلت تحتفظ به أكثر من عـــام فى هذه المنطقة ومن ثم حـاولت عرقلة السياسة البريطانية بتأليب القبـــائل الموالية لهـا على الانجليز ومن يساندونهم من أفراد القبائل الأخرى وخاصة قبائل العبسى • وكان معنى هذا حدوث ملاحم دموية زعزعت الأمن فى هذه الجهات وأصبح يخشى على كلا النفوذين الفرنسى والانجليزى من الضياع •• وذلك لو تنبه أفراد القبائل الى أنهم وقود فى معركة لصالح الاستعمار الأوربى •• ولهذا رأت الحكومتان الفرنسية والانجليزية وضع حد لهذه الاشتباكات الدموية حتى لا يصاب توسعهما أو نفوذهما فى المنطقة بأية خسائر •• واستقر الرأى فى يناير ١٨٨٧ على عزل كل من القنصل الفرنسى فى هــرر والقنصل البريطانى كنج فى منطقة زيلع •• وتعيين قنصلين بدلا منهما حتى تزول حالة التوتر وتعود الأمور الى حـــالة طبيعية تخدم مصـــالح الدولتين المتنافستين •

***

وعلى أثر تغيير القنصلين الفرنسى والبريطانى فى زيلع •• شرعت فرنسا وانجلترا فى التفاهم الودى حول حدود قوات الحكومتين على ساحل الصومال وذلك لتأمين مصالحهما والاتفاق على منـــاطق نفوذ لهما دون تعارض للرغبات •• وذلك أسوة بما حدث على ساحل زنجبار بين ألمانيـا وانجلترا اللتين اقتسمتا المنطقة بطريقة ودية •

وسارت المفاوضات بين فرنسا وانجلترا بنجاح تام •• وفى مـايو ١٨٨٧ تم عقد اتفاق بينهما يقضى بتنازل انجلترا عن جزر موشاح ــ كما تعترف بحقها فى أوبوك وتاجوره وأمباد وذلك فى نظير التنازل من جانب فرنسا لانجلترا عن ميناء دونجريتا •

وتمتد الحدود الفاصلة بين المناطق الانجليزية والفرنسية من رأس جيبوتى الى هرر ومنها الى الغرب الى شوا •• فالبلاد الواقعة فى الغرب والشمال من هذا الخط وأغلبها بلاد الدناقل الجنوبية الشرقية تقع فى حوزة الفرنسيين•• والمناطق الواقعة شرق الخط المذكور وهى بلاد العبسى والصومال والجاديبروصى فى ضـــواحى هرر •• تقـــع فى حيـــازة البريطانيين •

وقد خرجت فرنسا من هذا الاتفاق بنصيب الأسد •• ففى الوقت

الذى ظفرت فيه بمناطق حيوية وأكدت سيادتها على جزء هام من ساحل الصومال لم تخسر شيئا حينما تنازلت عن دونجاريتا للانجليز ، فقد فقد هذا الميناء آنذاك أهميته فى السيطرة على طريق التجارة بين الداخل والساحل ، ذلك لأن الاحوال الداخلية فى هرر والاضطرابات التى اكتنفتها وسوء الادارة وانعدام الامن على يد أميرها عبد الله عبد الشكور نجم عنه توقف طرق القوافل بين هرر والساحل وبين هرر والحبشة .. فلم يكن هناك أى سبب يستدعى تمسك الفرنسيين بهذا الميناء الذى كانت له أهميته فى يوم ما .. وكان رأى الانجليز أن السياسة قد تتغير فجأة .. فيعود عليهم استيلاؤهم على دونجاريتا بالكسب .

* * *

هذه التسوية التى تمت بين دولتى الاستعمار فرنسا وانجلترا لم تكن لترضى عنها الحبشة . فقد أدرك مينيلك ملك شوا حقيقة نوايا الدولتين فى السيطرة على الساحل واقتسامه لمناطق نفوذ .. ثم السيطرة على هرر .. فان معنى ذلك هو الرغبة فى السيطرة على تجارة الحبشة .. وكانت رغبة الحبشة فى الحصول على ميناء على الساحل من الأمور التى حرصت على تحقيقها بعد اخلاء المنطقة من الادارة المصرية .. وذلك ليكون متنفسا لها وخاصة أنها لا تملك أية ميناء على الساحل .. وعلى هذا بدأت الحبشة تلعب دورها بالنسبة لدول الاستعمار من ناحية وبالنسبة لبلدان هذه المنطقة من ناحية أخرى .

* * *

وقبل أن نتناول سياسة الحبشة .. نلقى نظرة على الدور الذى قامت به ايطاليا فى هذه المنطقة للحصول على مناطق نفوذ .

بدأ نشاط ايطاليا فى منطقة الصومال بشرائها ميناء عصب من مشايخ القبائل فى هذه الجهات وذلك عام ١٨٦٩ . وقد استدعى التنافس الاستعمارى الأوربى الذى بدأ فى الثمانينات من القرن الماضى أن تؤكد ايطاليا امتلاكها لعصب .. وكانت الخطوة التالية استيلاءها على ميناء مصوع عام ١٨٨٥ . وكانت مصوع منذ وقت قريب فى أيدى المصريين ثم انتقلت الى ايطاليا بموافقة انجلترا وتحريضها وذلك لمنع سلطان المهدى فى السودان من الاستفحال .. ويؤيد هذا النصر السرى فى الاتفاقية الانجليزية الايطالية ( ١٨٩٤ ) التى وافقت فيها انجلترا على أن تحتل ايطاليا كسلا كلها .. وكانت وقتئذ فى أيدى الدراويش ومن هذا يتضح أن تأييد انجلترا لايطاليا فى مصوع كان خدمة لسياستها فى حوض النيل .. وذلك لمساعدتها فى وقف خطر محمد أحمد المهدى .. ولتكون ايطاليا حاجزا بين نفوذه فى الداخل وتحول دون وصوله الى الساحل .

غير أن استيلاء ايطاليا على مصوع قد خلق موقفا معقدا . ولذلك عندما اتضح القصد من ذلك .. كان أنصار التوسع الامبراطورى فى ايطاليا يعارضون فكرة جعلهم مجرد حاجز أمام قوات المهدى كما أراد لهم الانجليز أن يكونوا .. بل أعلنوا أهدافهم فى ضرورة التوسع فى الحبشة وهرر .. وكان على رأس أنصار التوسع الامبراطورى السنيور كرسبى .. فقد أرادوا لايطاليا بعد استيلائها على مصوع أن تشارك انجلترا وفرنسا فى انشاء تجارة مع الحبشة عن طريق هرر .. وذلك حتى تخلق صلة تجارية بينها وبين مصوع التى تحتلها .. ومن هذا يتضح أن تأييد انجلترا لايطاليا فى مصوع كان خدمة لسياستها فى حوض النيل وذلك لمساعدتها فى وقف خطر المهدى فى السودان .. ولتكون ايطاليا حاجزا بين نفوذه فى الداخل ولتحول دون وصوله الى الساحل .

***

وفى سنة ١٨٨٦ ظهرت فى الدوائر الاستعمارية الايطالية حركة جديدة تهدف الى السيطرة على تجارة هرر لايطاليا .. بل ذهب الاستعماريون أبعد من ذلك حين رغبوا فى السيطرة على هرر ذاتها .. وكان للتجارة الايطالية أثر كبير فى ابراز فكرة استخدام هرر التى كانت فى أيد غير ايطالية للأغراض الايطالية وعلى رأس هؤلاء امبرتوروما جينولى الذى رأى الاستيلاء على هرر فى زحف خاطف .

وقد أعدت بعثة برياسة بورو وأرسلت الى افريقيا من ميلانو .. وكان غرضها انشاء مراكز تجارية فى هرر أولا وقد حذره الانجليز من الظهور بمظهر حربى وحثوه على الظهور بمظهر الهدوء والحذر . ولكن حينما وصلت الحملة التجارية هذه الى زيلع كان لها مظهر حملة عسكرية أكثر منها تجاريا .. فقد كان رئيسها بورو ومرافقوه مسلحين تسليحا قويا للوقوف فى وجه أمير هرر .

قامت البعثة من زيلع فى مارس ١٨٨٦ قاصدة هرر .. وحينما ظهروا فى ضواحى المدينة أرسل الأمير اليهم رسالة يخبرهم فيها أن يعودوا الى الساحل لأن مظهرهم الحربى أثار ثائرته وشككه فى حقيقة نواياهم التجارية ... وكان جوابهم بأنهم رجال مسالمون ولهم رغبة فى تقديم هدايا للأمير .. ولكنه رفضها وعاد فحذرهم من اجتياز الحدود وذلك بصفتهم قوات عسكرية جاءت لتنزع منه السيادة على هرر .

عزم الأمير على مقاومة هذه البعثة والقضاء عليها بأية وسيلة ورأى أفضل طريقة لذلك تخريب مدينة جلديسا .. حيث تقترب البعثة ، وذلك لمنعها من الوصول الى هرر . وقد قامت قواته بمحاصرة المكان وحينما

اقتربت البعثة من جلديسا زحفت قوات الامير للقائها ٠٠ واصطدمت بها عند المنابع الحارة فى آرتو وقتلتهم عن آخرهم ٠٠٠

وفى أثناء هذه المعركة ٠٠ كان الأمير عبد الله موجودا فى جلديسا التى خربت تماما وقد أراد عبد الله ألا يكون مسئولا عن مقتل البعثـــة الايطالية فنسب اليها الأسباب التى أدت الى هلاكها ٠٠

* * *

لم يكن القضاء على بعثة بورو قضاء على أطماع ايطاليا فى هرر ٠٠ فقد كانت رغبتها شديدة فى تأسيس مستعمرات زراعية ومصانع فى هرر ، ذلك الى جانب استغلالها كمركز تجارى هام ٠٠ وكانت ايطاليا تدرك مدى خصوبة هرر وصلاحيتها كمستعمرة زراعية تنتج الأقطان وقصب السكر والبن ٠٠ ويكفى ارسال آلات زراعية قليلة الى جانب العدد الضخم من رءوس الماشية لتحقيق نجاح عظيم ٠

اعتمدت ايطاليا فى هذه المرة على الأمير مينيلك ٠٠ واستغلت الخلاف الناشب بينه وبين يوحنا الجالس على عرش الحبشة لتحقيق نجاح فى سياستها تجاه هرر ٠ وكان يوحنا حريصا فى ذلك الوقت على استمالة مينيلك ليحول بينه وبين عقده معاهدة تحالف مع ايطاليا ضد الحبشة ٠٠ وحتى ذلك الحين ٠٠ لم يكن مينيلك قد عقد حلفا سياسيا أو معاهدة مع ايطاليا ٠٠ ولكنه أبدى تجاهها نوايا طيبة ٠٠ فأحسن معاملة الايطاليين وأيد استعمار ايطاليا لهرر ٠

***

والحقيقة أن موقف الحبشة بالنسبة لايطاليا كان يشوبه السوء ، لانها دخلت فى ميدان التنافس معها برغم الضمانات والوعود التى بذلتها انجلترا للحبشة فى يوم من الأيام ٠

ولنرجع قليلا الى الوراء فى ذلك الوقت الذى استطاع فيه الامبراطور يؤانس السادس أن يوطد سلطانه فى داخل الحبشة بتغلبه على منافسيه فى الحكم ثم تأمين بلاده من الخارج بهزيمته للقوات المصرية التى هددته من الشمال ٠٠ ففى ذلك الوقت ظهرت انجلترا فى الميدان لتحاول ابتلاع أملاك مصر وتدفع عنها أخطار قوات المهدى التى كانت تسير من نصر الى نصر ٠٠ رأت بريطانيا أن تحصل على معاونة يؤانس فى هذا السبيل ٠

وفى يونيو ١٨٨٤ ٠٠ عقدت انجلترا مع يؤانس معاهدة اتفقت فيها معه على تسهيل مهمة انسحاب القوات المصرية ٠ ثم على ضمان حرية نقل التجارة عن طريق مصوع والحبشة وبالعكس ، وكانت هذه التجارة تحت الحماية الانجليزية ٠

أوفى يؤانس بتعهداته تماما ٠ ٠وقدم مساعدات واضحة الى انجلترا فى وقت شديد الحرج ٠٠ وتمكن قائد يؤانس الرأس الوا من حماية هذه المناطق من قوات المهدى فحال دون وقوع أميديب وكيرن والجدين فى أيديها ٠

ونجد الموقف فى ١٨٨٥ كما يلى ٠٠ انجلترا بفضل تحالفها مع يؤانس حصلت على مساعدات قيمة منه ، ولكن انجلترا لم تنفذ معاهدتها معه بنفس الروح التى نفذها يؤانس ٠٠ ومن ذلك أن دعوة بريطانيا لايطاليا لاحتلال مصوع كانت دعوة تشوبها روح عدم الود بالنسبة لحليفتهـــا الحبشـــة ٠

وقد يقال ان تحريض انجلترا لايطاليا على التوسع على حســـاب الحبشة فى مصوع لا يتعارض مع نصوص الاتفاقية المبرمة بينهما ٠٠ ولكنه فى مجموعه عمل غير ودى بالنسبة للحبشة ٠٠ لأن التوسع بالنســـبة لايطاليا سيكون على حساب الحبشة ٠٠ ولم يكن يؤانس ينتظر من انجلترا أن تحرض ايطاليا وتؤيدها فى تهديد مصلحة الحبشة فى الوقت الذى كان يؤانس يوفى بتعهداته للانجليز ٠٠ خصوصا وأن مصوع التى شجعت انجلترا ايطاليا على ابتلاعها ٠٠ كانت فى نظر يؤانس أرضا حبشية ٠

احتج يؤانس على احتلال ايطاليا مصوع ٠٠ لكن دون جدوى ٠٠ فضلا عن ذلك فان هذا الاحتلال أدى الى نقض الشرط الأول فى تلك المعاهدة ٠٠ كانت انجلترا قد وافقت على حرية نقل المتاجر بين مصوع والحبشة بما فى ذلك الأسلحة والذخائر ٠٠ وبعد سنوات قلائل من احتلال ايطاليا لمصوع ٠٠ كانت التجارة المنقولة قاصرة على الأسلحة التى أرسلها الايطاليون الى مينيلك ملك شوا وعدو يؤانس ٠٠ ولا شك أن تحول المسألة وتطورها الى عملية نقل أسلحة الى منافس يؤانس ٠٠ تعتبر نقضا لروح المعاهدة ٠

***

هذا العمل الذى قامت به انجلترا وايطاليا فى مصوع ٠٠ كان مفاجأة غير سارة للملك الحبشى ، ولكن كان عليه أن يتلقى أمورا كثيرة أكثر دهشة وأكثر سوءا ٠٠ أدرك يؤانس أن محور السياسة التى تتبعها الدول الأوربية وخاصة انجلترا فى سبيل تحقيق الأهداف الاستعمارية ٠٠ هو أن الحاجة لا تعرف القانون ٠٠ فلكى ترضى انجلترا ايطاليا وتقوى مركزها أمـــام فرنسا ٠٠ أباحت لها التوسع فى الحبشة ٠

ولم تضع ايطاليا الوقت بل أسرعت فى تنفيذ هذا التوسع ٠٠ فاحتلت بعض المواقع على ساحل البحر عام ١٨٨٦ ثم بدأت تتقدم فى الداخل ٠٠ أحيانا بقوات مسلحة ٠٠ وأحيانا بتوسع تجارى أو فى شكل بعثات علمية ٠

وحدث فى عام ١٨٨٧ أن الكونت مالبمينو أحد قواد هذه الحملات العلمية التجارية أخذ أسيرا لدى الرأس ألوا وهو على الحدود الحبشية وعلى بعد خمسين ميلا من مصوع ‥ وقد أخبر الرأس ألوا من الحكومة الايطالية بأن الاحتلال الايطالى سيقتصر على مصوع فقط ولن يتوغل فى الداخل ‥ ولكن الطلب رفض ‥ وسرعان ما قامت الحرب بين حليفتى بريطانيا ـ الحبشة وايطاليـــا ـ وتقدمت احدى القوات الايطالية الى حدود الرأس ألوا ولكن قوات ألوا استطاعت أن تهزم الايطاليين فى دوجالى فى ١٨٨٧ وازاء ذلك اضطر الايطاليون للانسحاب الى مصوع ٠

على الرغم من انتصارات قوات يؤانس على ايطاليا ‥ فانه قد أحاطت بها مصاعب كثيرة ٠ اذ كان الدراويش يهددون الحبشـــة من الغرب ‥ وكان مينيلك بمعاونة الايطاليين يناوئه من الجنوب ‥ وفى الشرق حرضت ايطاليا القبائل على الثورة وفى الشمال انتظر الايطاليون الامدادات والأسلحة للتوغل فى الحبشة ٠

وكان الحليف الرسمى ليؤانس هو انجلترا ‥ لكن هذا الحليف لم يكن حليفا صادقا ‥ لأن انجلترا راعت مصلحتها ومصلحة ايطاليا على حساب الحبشة ‥ ولم يكن الرأى العام الانجليزى يعرف آنذاك حقيقة الموقف فقد جرت السياسة الانجليزية سرا ‥ وأذاع الانجليز أن الأحباش يرتكبون أعمالا وحشية ‥ وان صحت هذه كلها فان الخيانة والخداع التى ارتكبتها السياسة الأوربية فى الحبشة لا تقل أبدا عن هذه الأعمال الوحشية ٠

وفضـــلا عن ذلك فان معاهدة أوتشالى سـنة ١٨٨٩ بين مينيلك وايطاليا قضت بأن يتعهد مينيلك بمساعدة ايطاليا فى الاستيلاء على بعض المناطق فى الداخل وذلك نظير مساعدة ايطاليا ضد يؤانس ‥ وطبقا لهذه المعاهدة احتلت ايطاليا عدة مقاطعات من الحدود الحبشية لكن ايطاليا لم تلبث أن نقضت معاهدتها باستيلائها على عدوة ولم تكن هذه المدينة ضمن الاتفاقية بين ايطاليا ومينيلك ٠

أما بالنسبة لهرر فقد كانت سياسة كل من فرنسا وانجلترا هى الاهتمام بالتجارة مع الحبشة وهرر برغم سياسة الأمير عبد الله المعادية لنشاط الأجانب ، وقد تظاهرت كل من الدولتين بقبول هذا الوضــع المؤقت لكن رغبتها لاعادة التجارة بين موانى الساحل وبين هرر كانت رغبة ملحة ‥ ودخلت ايطاليا فى هذا الميدان وهى صاحبة الاطمـــاع المعروفة فى الحبشة والصومال وهرر ، وقد أيدت انجلترا سياستها فى أثيوبيا وكانت ايطاليا تقدم الأسلحة لأعداء يؤانس ومنهم عبد الله أمير هـــرر ٠

حينئذ شعرت فرنسا بالخطر الذى يهدد مستقبلها وزاد اهتمامها بمسألة الصومال وهرر وتجارتهما • وقد زاد اهتمام فرنسا بهرر وخاصة بعد استيلائها على ميناء جيبوتى ، كانت جيبوتى مركزا صالحا للتوسع الاقتصادى مع هرر لكن قيمة جيبوتى من هذه الناحية تعتمد على حالة المنطقة التى تقع خلفها •• فاذا استولت انجلترا وايطاليا أو صديقها مينيلك على هرر والصومال على الأراضى فى الداخل ، فقدت جيبوتى أهميتها •

عندئذ اقترحت فرنسا على انجلترا أن تتعهدا معا بعدم احتلال هرر والصومال وبمنع ايطاليا من احتلالها • ووجد لورد سالسبورى رئيس الوزارة البريطانية نفسه فى موقف حرج •• كانت انجلترا تحرص دون شك على ان تبعد فرنسا من هرر وفى نفس الوقت تخشى بعض الشىء من امتداد النفوذ الايطالى هناك •• لكن ارتباط انجلترا مع ايطاليا جعل من المتعذر عليها ان تقف فى وجه المطامع الايطالية فى هرر •

وانقاذا لهذا الحرج •• قرر سالسبورى أن يجد لنفسه مخرجا •• فعقد اتفاقا سريا مع فرنسا يمكن أن يفسر على وجهين — أى يشوبه الغموض — فى فبراير ١٨٨٨ ونص الاتفاق على أن تتعهد انجلترا بعدم محاولة ضم هرر والصومال أو وضعهما تحت الحماية •

وقال الاتفاق ان هذا التعهد لا يمنع الدولتين من معارضة أطماع أية دولة أخرى فى هرر والصومال •• ويلاحظ فى هذا الاتفاق أن انجلترا قد ألزمت فرنسا بعدم احتلال هرر والصومال كما التزمت هى نفسها بذلك •• وفى نفس الوقت رفضت انجلترا التعهد بالوقوف أمام مطامع ايطاليا فى هرر والصومال لأنها كانت تؤيد رغبتها فى التوسع كما كانت تنظر الى أن مستقبل ايطاليا هو فى الحبشة •

ومن الملاحظ أن الاتفاق لم ينص على معارضة أطماع أية دولة أخرى فى هرر والصومال وان كان قد أشار الى أنه لا يمنع انجلترا وفرنسا من المعارضة •

***

# الفصل الثالث

## في المعركة ضد الاستعمار

فيما سبق ألقينا الضوء على تطورات السياسة الاستعمارية الأوربية في منطقة شرق افريقيا ونصيب الصومال من هذه السياسة .. لقد تآمرت عليه أربع دول .. اغتصبت كل منها قطاعا من قطاعاته فتفتت هذا القطر العربى الذى حمل لواء العروبة وكافح فى سبيل الحفاظ عليها فى شكلها وتقاليدها ودينها منذ تبلورت العناصر العربية فى شكل امارات مقديشيو وهرر وزيلع وكان لها فى تاريخ هذه المنطقة شأن كبير .

وكان لاقتسام الصومال وتفتيته الى مناطق نفوذ بين الدول الاستعمارية وقع شديد الأثر فى نفس الوطنيين الذين عز عليهم أن يصبح بلدهم فريسة ينهشها الطامعون .. ولم يمض على زوال عصر الادارة المصرية الذهبى سوى أعوام قليلة .. تمتعت البلاد خلاله بكل ما تأمل فى تحقيقه من أسباب العز والرفاهية .. ثم تجيء هذه النكسة السريعة لتطيح بآمال المواطنين فى مواصلة أيام المجد والازدهار وليصبح الصومال الواحد صومالا فرنسيا .. وصومالا بريطانيا .. وصومالا ايطاليا .. وصومالا حبشيا .

ودخل الاستعمار بوسائله المختلفة التى تضعف مقاومة الشعوب ضد استمراره فى التحكم بسياسة بث الفرقة .. واحتضان فئة من المواطنين واغرائها بالمال والنفوذ لتكون سيفا على باقى أفراد الشعب ونشر العادات الذميمة لتمكين الانحلال من النفوس .. وكل ما من شأنه اشاعة الفوضى والاضطراب .

***

هذا هو الوضع الذى أصبحت عليه بلاد الصومال بعد أن دنستها أقدام الاستعمار وكانت هذه الحالة تشغل تفكير محمد بن عبد الله حسن وتملك عليه كل وقته ، وقد رأى أنه لا سبيل الى المقاومة الا بتوعية

الشعب الصومالى لما يراد به من سـوء ، وتعبئته لمحاربة الاستعمار ومشاريعه ، وكشف محاولات أنصاره وأذنابه من الخونة لاضعاف الجبهة الداخلية .

بدأت حركة الكفاح التى حمل لواءها مهدى الصومال بحملة واسعة كان على رأسها يساعده فيها نفر من أتباعه المخلصين قاموا بحمل وجهة نظره الى أفراد الشعب فى الأحداث التى تحيط بهم ورأى الدين القاطع فى خيانة الوطن والتهاون مع أعداء البلاد ، وكان أسلوب مهدى الصومال بالغ الروعة قوى التأثير بفضل دراساته السابقة فى القرآن والفقه والحديث والتاريخ وتمكنه منها طوال الأعوام التى قضاها دارسا ومتفقها .. وذلك الى جانب شخصيته القوية التى أضفت على قوة منطقه وبلاغته واقناعه الشيء الكثير .

***

كان أول هدف من أهداف رسالته التحررية ومحاربته للقـوى الاستعمارية هو تأمينه لجبهته الداخلية ليضمن وحدة المقاومة وعدم تسلل الخيانة الى الصفوف ، فكانت حربه على الخونة المتلاعبين بمستقبل بلادهم ، وقد انصبت خطبه الحماسية على موقف هؤلاء الذين يحدثون أنفسـهم بالتعاون مع المستعمر عدو البلاد تحت مغريات المال والجاه من الاقدام على هذا العمل الخطير .. فالمال والجاه الى زوال وتبقى بعد ذلك السيرة التى ستحاسب حسابا عسيرا .

وقد صادفت الدعوة التى قام بها محمد بن عبد الله حسن صـدى عميقا فى نفوس مواطنيه الصوماليين اذ أنسوا الى زعامته فانضـووا تحت لوائه وقد أعجبهم منطقه وسياسته وآمنـوا بصدق دعوته وجدية كفاحه . وقد أمد هذا التأييد مهدى الصومال قوة وصلابة واصرارا على انتزاع حقوق مواطنيه واستقلالهم وحريتهم من دول الاستعمار الأربع التى اقتسمت بلاده .

***

ومن الأعمال التى أقدم عليها الاستعمار فى مطلع عهده ببـلاد الصومال هو ارساله جيوش المبشرين الى هذه البلاد لتقوم بحربها على العقائد ولتهيىء النفوس للسكينة والاستسلام .. والرضا بالأمر الواقع . وانتشر هؤلاء المبشرون فى كل مكان لتحقيق أهداف الاستعمار وبدأ خطر دعوتهم يظهر فى الأفق ليهدد العادات والتقاليد الاسلامية العربية العريقة .

فزع الملا محمد بن عبد الله حسن لهذه الظاهرة الخطيرة فهب

ليدافع عن كيان مواطنيه وحرمة دينه وحرية بلاده .. وليمنع انتشار هذه الحملات في أرض الصومال ووقف نشاطها فورا .. وانتهز فرصة قدوم بعثة جديدة عام١٨٩٧ ليتصل برجال الادارة الاستعمارية البريطانية ليعلن عن رأيه ورأى مواطنيه في ضرورة اقصاء رجال هذه البعثات فورا، وعدم تمكينهم من أداء مهمتهم التي تشكل خطرا عظيما على الدين الاسلامي دين الغالبية العظمى في الصومال وتعرض عقيدتهم السمحة للمسخ والتحريف .

وأراد الاستعمار البريطاني العبث بعقول الصوماليين عن طريق وعود زائفة بجلاء بعثات التبشـــير ، لكن الوطنيين وعلى رأسهم الملا راقبوا تنفيذ هذا الوعد بدقة ولما رأوا التلاعب واضحا والنية السيئة هي الطابع الغالب ضموا هذا العامل الى أسباب نفورهم لقتال المستعمر واعلان الجهاد المقدس ضده . ويصف الملا هذه المرحلة من مراحل الكفاح فيقول : « فشرعت في استعداد سريع سرى من جهة ، وخطب ومواعظ مؤثرة من جهة أخرى ، وكنت أدعو القبائل الصومالية للتحرر من الشك والتكاسل الى اليقين والعمل ومن التخالف والتخاذل الى التعاون والتكاتف ومن الخوف والهلع الى الجرأة والاقدام ، ومن الاستســـلام والذلة الى الاستبسال والعزة ، فاجتمع لدى عدد كبير من القبائل الصومالية والتفوا حولي وغرست في نفوسهم محبة دينهم ووطنهم ، وبغض عدوهم من الكافرين ومن يساندهم ، وانطبعت معاني الآيات القرآنية في نفوسهم وفهموا المقصد منها وتعاهدوا على الجهاد والدفاع عن الدين والوطن والشرف ، وأخذوا في الاستعداد بالرماح والسيوف والبنادق القليلة .

***

لم يملك مهدى الصومال أمام هذا العدوان السافر على وطنه الا أن يتخذ لنفسه طريق الجهاد والتضحية لاستخلاص حقوق مواطنيه واعادة الوحدة الى بلاده ، وطرد المستعمر وجمع شمل أبناء الصومال تحت راية متحدة ، وقد أعلن للجميع سياسته التي أفصح عنها بقوله : « نحن قوم قاموا بالعزم والايمان وعقدوا نيتهم ليدافعوا عن دينهم وشرفهم الى آخر قطرة من دمائهم .. نحن قوم نكافح لنطهر جميع أنحاء بلاد الصومال من الأعداء المستعمرين لأننا نعلم تماما أنه لا يمكن لنا أن نعبد الله في أرضنا آمنين مطمئنين ولا أن نقيم أحكام كتابه .. ولا أن نستثمر خيراتها ولا أن نستنشق نسيم الحرية فيها الا بعد تحقيق الفرض المذكور ، ونحن قوم حاصرتهم الكفار والمنافقون من جميع الجهات وأحاطتهم كاحاطة الهالة للقمر ، وقطعت عنهم جميع المواصلات والامدادات الحربية والغذائية»

***

بدأ مهدى الصومال معركته برسم خطة لكفاح طويل المدى ضد الاستعمار يضمن بها استمراره فى القتال وقد ضمن الموارد التى تدعم مركزه من رجال مقاتلين وعتاد حربى وذخيرة تم بهما تموين قواته وخاصة أن معظم الرجال سيحملون السلاح ويتركون الحقول ٠

جمع مهدى الصومال حوله الصفوة المخلصة من أبناء القبائل الموالين له ، وجعل منهم فرسان الطليعة وبعث برسله الى المدن والقرى يحملون أعلام الحرب ويستنفرون الناس لقتال عدو بلادهم ودينهم ويوضحون أنهم بصدد منازلة منافس قوى الامكانيات ، ومن هؤلاء الذين جمعهم رسله كون فريق المشاة والمقاتلين واستمرت حملة الدعوة الى التطوع طوال فترة الحرب ، وشهدت بريقها فى السنوات العشر الأولى منها ٠

ثم يأتى بعد ذلك دور امداد القوات بالعتاد والذخيرة ، وكانت هذه مهمةصعبة ، وخاصة بعد آن بدأ الاشتباك الفعلى بين القواتالصومالية والقوات البريطانية ، وقد نجح مهدى الصومال فى تهريب الأسلحة من المناطق التى يسيطر عليها الفرنسيون والايطاليون ، الى جانب ما كان موجودا بالمخازن من أسلحة الجيش المصرى الذى خرج من هذه البلاد منذ وقت قريب ، وقد بنى عددا من المخازن فى مغارات الجبال لتكون مستودعات لهذه الذخيرة ٠

لم يهمل ابن عبد الله الحسن موضوع بناء استحكامات عسكرية فى عدة مراكز لحماية قواته فى حالات الكر والفر فبنى فى داخل البلاد أربعة حصون ضخمة قوية أودع فيها كميات كبيرة من السلاح والعتاد الحربى والمؤن ٠ وكانت هذه الحصون موزعة باحكام فى أماكن استراتيجية كما أقام فى عديد من الأماكن الخنادق والمتاريس لتقف فى وجه هجمات العدو كما أقام عدة صهاريج لحفظ المياه وحفر الآبار فى بقاع مختلفة من أرض المعركة ، وفى داخل الأوجادين أنشأ عددا من القلاع والحصون لمثل هذا الغرض ٠

وفى ميدان الامدادات والتموين .. أمر القائمين على الأراضى الزراعية من ملاك ومزارعين بمراعاة الظروف التى تمر بها البلاد من احتياج لسواعد قويه للقتال مما سينجم عنه نقص فى الايدى العاملة فى الحقول ٠٠ وضرورة مضاعفة الانتاج برغم ذلك لسد حاجة المقاتلين وتوفير وصول المؤن اليهم ٠

وقد رأى مهدى الصومال بعد أن اكتملت له عناصر النجاح أن يبدأ قتاله بتلقين نفر من أهل الصومال الذين لم ينضووا تحت لوائه ٠٠ وآثروا مهادنة العدو درسا فى الوطنية فقام بشن هجوم على أتباع الطريقة القادرية فى بلدة الشيخ وأبادهم عن آخرهم ٠

هذه الاستعدادات وهذه الحملة على معارضى الملا فى الداخل نبهت السلطات البريطانية الى الخطر الذى يكمن وراء تحركات ثائر الصومال .. فرأت أن تقوم بهجوم مفاجىء على قواته لتبيدها فى مهدها .. فقامت بغزوة سريعة على أحد القبائل الهامة التى تساعده .. كما أوعزت الى القوات الحبشية بالقيام بهجوم على مناطق الثوار المتاخمة لحدودها ولكن هذين الهجومين لقيا مصيرهما من الفشل التام .

ومرت سنوات . والملا ينتظر اللحظة المناسبة للدخول مع قوات الاحتلال فى معركة تقرير المصير وكان الاستعداد والحماسة قد بلغا ذروتهما .. وجميع المقاتلين فى شـوق بالغ للقاء العـدو وقتاله حتى تستأصل شأفته .. وبدأ الملا فى نفس الوقت توزيع قواته حيث معاقل الانجليز .. وحدثت بينه وبينهم مناوشات مبدئية لتخرج قواته منهـا مظفرة وأعقب هذا عملية الحرب النظامية ضد قوات الاستعمار البريطانى ليحرز جنوده عدة انتصارات باهرة .

وفى الفترة ما بين ١٩٠٠ و ١٩٠٤ ـ أرسل الانجليز أربع حملات مجهزة تجهيزا قويا لقتال مهدى الصومال ولكنه تمكن من قهر هذه الواحدة تلو الأخرى .. وارتفع رقم قتلى الجيش البريطانى الى مبلغ كبير . ومن المعروف أن خطة القائد الصومالى كانت تتلخص فى مهـاجمة فرسـانه المخلصين لقوات الانجليز الأصيلة ، ثم تصدى مشاته للقوات التابعة للجيش البريطانى من مناطق المستعمرات المختلفة .. وكان فرسان مهدى الصومال لأبناء بريطانيا الخلص بالمرصاد لمعرفتهم أن القتيل منهم يساوى فى نظر الاستعمار البريطانى مئات القتلى من الجنود التوابع . وقد نجحت هذه الخطة أيضا فيما هدفت اليه من ازعاج الرأى العام البريطانى على نتيجة الحرب الخاسرة التى أقدمت عليها حكومته فى الصومال .

***

بعد أن فشلت بريطانيا فى هذه المرحلة من مراحل حربها مع قوات مهـدى الصومال ولم تسفر حملاتها الأربع عن نتيجة حاسـمة ترضى الاستعمار البريطانى أقلها كسر شوكته ان لم يكن القضاء عليه وعلى حركته الثورية .. رأت الاستعانة بزميلتيها الاستعماريتين اللتين اقتسمت معهما الصومال وهما فرنسا وايطاليا .

فبالنسبة لفرنسا رأت بريطانيا أن تبرم معها اتفاقا يقضى بمحاربة تسرب الأسلحة من ميناء جيبوتى الذى تسيطر عليه .. الى قوات مهدى الصومال لأن فى هذا العمل نقضا لاتفاقيات الود التى سبق أن عقدت بين الطرفين .. كما أن فى ذلك العمل ما يساعد ثائر الصومال ورجاله على الاستمرار فى حربهم وقد وجدوا الذخيرة والعتاد .. وبرغم اتفاق

الحكومتين الفرنسية والانجليزية على هذا الأمر ٠٠ الا أنه لم ينفذ وكانت الاسلحة تصل بانتظام الى القوات الصومالية لان جيش فرنسا الموجود بالصومال لم يات ليحارب وهو مقتنع بمنطق أو محقق لهدف ٠٠ ومن ثم لم يكن يهمه الا الحصول على المال ولو كان فى هذا اخلال بما سبق الاتفاق عليه ٠

أما ايطاليا ٠٠ الدولة الجديدة على ميدان الاستعمار ٠٠ والتى دخلته فى شاطىء افريقيا الشرقى كمحاولة للحاق بالركب وعدم التخلف عن سياسة أوربا وطابعها الاستعمارى ٠٠ فانها كانت ترى فى بريطانيا زميلا محنكا ٠٠ يجيد الأساليب الاستعمارية ومناوراتها ورأت ما أصاب هذه الدولة من ضربات قاصمة على أيدى قوات المهدى الصومالى ٠٠ وكانت فى قطاعها تتوجس خيفة من امتداد الحركة الثورية الصومالية الى القطاع الذى آل اليها ٠٠ فرأت أن تسهم مع شريكها الاستعمار البريطانى فى القضاء على ثورة ابن عبد الله حسن ٠ وكانت بريطانيا فى هذه الآونة فى أمس الحاجة الى معونة القوات الايطالية بعد أن أصاب الثوار قواتها بخسائر جسيمة ٠

وكان الاتفاق بين كل من بريطانيا وايطاليا يقضى بأن تتبع المناطق التى يسيطر عليها ثوار الصومال السلطات الايطالية وذلك حتى يوضع عداء مهدى الصومال للقوات البريطانية عند حد وتخف وطأة المقاومة على ضوء هذا الوضع الجديد ٠٠ لكن ابن عبد الله حسن واصل شن هجماته لأن الاستعمار فى نظره كل لا جزء وسواء وجد فى منطقة يريد الاستعمار البريطانى فرض سيطرته عليها أو الاستعمار الايطالى ٠٠ فان هذا لن يغير من أسلوب الكفاح والنضال حتى يستخلص الحرية والسيادة لمواطنيه ٠٠ وهكذا لم تفلح الحيلة الجديدة فى تحويله عن عزمه واثنائه عن ارادته ٠

أما الأحباش ٠٠ فكان لهم دورهم فى مناوشات دائمة لقوات مهدى الصومال التى تقارب حدود الحبشة وكان اللقاء بين الفريقين يسفر دواما عن هزيمة ماحقة للأحباش ٠

***

لم يترك الاستعمار وسيلة لمحاربة مهدى الصومال الا وطرقها ٠٠ وحتى يكمل هذه الوسائل ٠٠ كانت خطته فى تحطيم شخصيته ٠٠ وازالة زعامته من النفوس ٠٠ فكانت حرب الدعاية المغرضة حول شخصه وأهدافه وسياسته ٠٠ وقد وجد الاستعمار فى هذا المجال فرصة لاثارة منافسيه من زعماء القبائل الذين تقلصت سلطاتهم نتيجة لحركة الملا ٠٠ فأخذ يروج الشائعات بينهم عن نواياه فى تنصيب نفسه ملكا على الصومال ٠٠

وأن كفاحه لا هدف له الا الوصول الى هذا الغرض ٠٠ وذلك حتى يوغر صدورهم ويقلبهم عليه ٠ ومن اشاعة أخرى عن قسوته وجبروته وشدة بطشه بمنافسيه لو آلت اليه مقاليد الأمور فى النهاية ٠٠ والعاقبة الوخيمة التى ينتظرها المواطنون على يديه فى هذه الحالة ٠ كذلك روج الاستعمار وأذنابه من التهجمات على قيمه الدينية وتصرفاته الشخصية كرجل دين ٠

هذه التخرسات تفتتت عند اقدام مهدى الصـــــومال ، فقد كانت أعماله وكان سلوكه يقول بغير هذا الذى أطلقه الاستعمار ، وكان واضحا أنه افتراء على الحق وتزييف للواقع وربما كان له أثره فى أول الأمر لبلبلة الأفكار عن حقيقته ٠٠ ولكن ما لبث أن انكشفت الامور على حقيقتها فى النهاية وخرج ابن عبد الله حسن من هذه الحرب ٠٠ كما خرج من وقائع أخرى أقوى عودا وأكثر أنصارا ليواصل رسالته فى سبيل طرد المستعمرين من بلاده ٠٠ وتوفير الحياة الحرة لوطنه ومواطنيه ٠٠ ودارت الحرب سجالا بينه وبين أعداء بلاده

***

وبرغم الخسائر التى لحقت بمهدى الصومال وقواته الا أنه استطاع أن ينزل بالقوات الانجليزية خسائر أفدح وكبدها أموالا طائلة صرفت على حملات متعددة واستعدادات للحرب وصلت فى مجموعها الى أكثر من أربعة ملايين من الجنيهات ٠٠ وهو قدر ضخم اذا قيس بقلة النفقات ورخص التكاليف آنذاك ٠٠ وكان هـــذا الذى صرف من الخزانة البريطانية مثار أسئلة ومناقشات فى مجلس العموم البريطانى الذى أثارته هذه المصروفات وقرر أن يتخذ ازاءها عملا ايجابيا وحازما يهدىء من روع الشـــعب الذى لم ير فى هذه الحروب والاشتباكات مع القوات الصـــــومالية أية نتيجة حاسمة بعد مرور أكثر من عشر سنوات على بدايتها ٠

ورأى وزير المستعمرات البريطانى ــ وكان آنذاك ــ ونســــتون تشرشل ــ أن يقدم تقريرا سريعا عن رحلته التى قام بها فى منطقة شرقى افريقيا وعن الحالة هناك وأوضاع القـــوات البريطانية وقوات الدول الاستعمارية الاخرى ، وكان ذلك فى نهاية عام ١٩٠٧ ٠ وعلى ضوء هـذا التقرير الذى قتل بحثا ومناقشة ٠٠ قرر البرلمان البريطانى فى مارس ١٩٠٩ تكليف سير ريجنالد ونجت حاكم السودان العام وسردار الجيش المصرى بالسفر فى مهمة الى الصـــومال ليتحقق بنفسه من الاوضاع التى وصلت اليها القوات البريطانية ٠٠ واقتراح الحلول التى يراها مناسبة لتخفيف أعباء الحكومة وثورة الرأى العام البريطانى على تصرفاتها ٠

ونفذ ونجت هذا الأمر ٠٠ وقام فعــــلا بالسفر الى بلاد الصومال يصحبه مجمـــــوعة من الخبراء الانجليز على رأسهم سير رودلف سلاطين

مفتش عام السودان وكلايتون بك وآرمبرستر مدير مصلحة الجمـــــارك السودانية •• وهناك اجتمع بالمســــئولين الانجليز ثم طلب من مهدى الصومال الاجتماع به لتسوية الموقف ومعرفة مطالبه وشروطه للتفاهم •

*** 

وبعد شهرين من الاتصالات والمشاورات ، بعث ونجت بتقرير الى الحكومة البريطانية اقترح فيه عدة حلول أولها اتخاذ سياسة محددة للقضاء على حركة الثوار الصوماليين وذلك بمشاركة القوات الفرنسية التى يجب اقناعها بعدم بيع أسلحة أو ذخيرة لهؤلاء الثوار •

وكانت القوات الفرنسية تبيعهم هـــذه الاسلحة سرا لتكسب المال الذى تنفقه على ملذاتها فاذا فشلت الحكومة البريطانية فى الوصول الى نتيجة عن طريق هذا الحل ، فعليها أن تلجأ الى حل آخر هو فتح باب المفاوضة مع مهدى الصومال واقرار السلام وتهدئة الحالة الى حد ما يمكنها من الالتجاء الى سياسة أخرى فيما بعد •

*** 

وفضلت الحكومة البريطانية تجربة الحل الاول وهو العنف مـــع المجـــاهدين الصوماليين واستعمال حرب الاعصاب مع قائدهم •• وبدأت الدائرة من جديد بتهـــديد أرسله الجنرال كوفل القائد العـــام للقوات البريطانية الى مهدى الصومال ابن عبد الله حسن جاء فيه :ـ

« سننسفك نسفا اذا لم ترجع عن غيك ، واذا لم تخمـــــد ثورتك الجنونية واعلم أن حكومة صاحبة الجـــلالة عظيمة جدا •• ولا يستطيع مجنون مثلك أن ينال منها شيئا فارجع عما أنت فيه ، وعد الى صوابك قبل أن تقع المصيبة عليك •• وتندم على أعمالك السيئة » •

وكان رد البطل الصومالى على هذا التهديد والوعيد ردا مفحما أفسد على الانجليز حرب الاعصاب التى أرادوا الكسب من ورائها •• فقد كتب الى القائد البريطانى يقول :

« من السيد محمد بن عبد الله حسن قائد القـــوات الاســـلامية الصومالية الى الجنرال كوفل قائد الشـــيطان : قد أطلعت على رسالتك وفهمت منها جميع أغراضك الدنيئة وأغراض حكومتك الوضيعة • واعلم أن قواتكم التى تفاخرون بها لا تساوى لدى شيئا •• وأعلمك أيضا أنكم اذا كنتم تحاربوننى بقواتكم الهائلة الكثـــيرة العدد فاننى أقاتلكم بنيتى الصالحة وبايمانى القوى وبعزيمتى التى لا تعرف الملل • ومهمـــا تكن الظروف لن أستسلم ولن أكون للشرك عبدا » ••

*** 

وفى ايمان وتصميم على استخلاص حقوق الصوماليين كاملة كان هذا الرد الذى انطلق قذيفة فى وجه الاستعمار وتهديداته الذى لم يتعود مثل هذه الجرأة « المتناهية » • واعتبر القائد البريطانى الجنرال كوفل هـذا الرد الذى بعث به اليه مهدى الصومالى اهانة شخصية له •• وتطاولا على قدسية الامبراطورية ولا يجب السكوت على هذا التهديد السافر والتحدى الذى يقلل من هيبة الحكومة الانجليزية •• ومن الضرورى رد اعتبـــار الجميع بتأديب هـــذا المتمرد فى نظره ــ حتى يكون رأس الذئب الطائر الذى يتخذ منه الغير العظة والعبرة •

***

واستصرخ الجنرال كوفل قواته فى كل مكان للقيام بهجوم شامل على المراكز التى يسيطر عليها مهدى الصومال ، وبعث الى مراكزه بنداءات الحماسة واستحلفهم باسم الوطن أن يرفعوا رأسه هذه المرة بانتصـــار يقضى على مقومات ثورة الصومال ويرغم قائدها على الاستسلام والسجود أمام أباطرة الحرب والنزال •• كمـــا قرر الجنرال كوفل •• امعانا فى جدية القتال ــ أن يتولى رياسة العمليات الحربية وقيادة الجيوش بنفسه ويخوض هذه المعركة الهائلة التى حشد لها كل امكانياته من ذخيرة وسلاح ومؤن وخبرات وخيانة •• كما حدد الميدان الرئيسى لها مدينة « تليح » لتكون فصل الخطاب •

***

لم يكن من السهل القضاء على ثورة مهدى الصـــومال الذى آلى على نفسه ألا يستسلم وألا يكون عبدا للشرك •• وأن يقاوم بقـــوة ايمانه وبعزيمته التى لا تعرف اليأس جيوش الامبراطورية الكثيفة العدد ، القوية العدة ، المفتقرة الى ســـلاح الاستشهاد وعدالة القضية والدفاع عن أرض الوطن ، فهى تشعر فى قرارة نفسها أنها قوات معتدية آثمة •• أتت غازية لتسلب مواطنين استقلالهم وحريتهم ، وشتان ما بين السلاحين من تناقض

قرر ابن عبد الله حسن أن يفوت على الاستعمار البريطانى أغراضه ، ويفسد عليه خططه ويحطم آماله التى عقـــدها على نصر سريع فى المعركة التى حدد زمانها ومكانها •• فقام يحشد قواته وينظم صفوفه ويلقى فى أنصاره ومحاربيه نداءات الثأر والكرامة وصـــون أرض الوطن من دنس الاستعمار ، واستعد لهذه المعركة اســـتعدادا هائلا • وفى تليح ، حيث تتجمع قوات مهدى الصومال بدأت المعركة المنتظرة قوية عنيفة ، والقوات الانجليزية بأسلحتها الحديثة الفتاكة وعددها الكبير الذى لم يسبق له أن اشـــترك فى معركة واحدة الا معركة هكس فى غرب السودان فى مطلع

ثورة مهدى السودان ، وكان الطرف الثانى فى القتال قوات ابن عبد الله حسن وقد استكملت كل مقومات المقاتل الصلب العنيد ٠٠ ودار القتال عدة أيام ليكثر القتلى ويرتفع عدد الشهداء ٠ وكان قلق الحكومة البريطانية بالغا وتلهفها شديدا لمعرفة أخبارها ونتيجتها الفاصلة ٠

***

وجاءت نتيجة هذه الموقعة مخيبة لآمال الاستعمار البريطانى ، مضيعة عليه أهدافه ، محفزة لثوار الصومال على مواصلة كفاحهم واستبسالهم فى سبيل قضية الحرية والكرامة التى يدافعون عنها ـ لقد انتصرت قواتهم على القوات البريطانية انتصارا مؤزرا وأرغموها على التقهقر خائبة المسعى بعد أن قتل القائد العام الجنرال كوفل فى الميدان ووطأته أقدام الصوماليين وسنابك خيولهم ٠٠ ووقع العديد من الضباط البريطانيين أسرى فى أيدى قوات مهدى الصومال ٠

كانت أخبار هزيمة الجنرال كوفل العتيد ومصرعه وتشتيت قواته بين قتيل وجريح وأسير وهارب لها وقع سيىء فى الامبراطورية البريطانية عامة والحكومة فى لندن خاصة ٠٠ التى أفزعها ما وصلت اليه الحالة فى الصومال من تدهور بالنسبة اليها ٠ وكثر عليها أن تنتصر عناصر افريقية مجردة من الخبرة والسلاح والتكتيك على قوات الامبراطورية ، ويفقدها هيبتها وما تتمتع به من سمعة مدوية فى ميدان الحرب والنزال والاستعمار ترهب قلوب الاعداء ٠ وخرج الشرف الافريقى من هـــذه المعركة مرفوع الرأس موفور الكرامة ٠٠ يروى للأجيال قصة انتصار الحق على الباطل والايمان على جحافل الظلم وليكون أسطورة يتحدث بها المواطنون فى مجال الفخر ورواية الأمجاد ٠

***

كما كان لهذا الانتصار المشرف الذى أحرزه مهدى الصومال وقائد ثورته دويه الهائل فى أنحاء العالم الاستعمارى الذى هب مذعورا ليرى فيه مصرع آماله وأحلامه ٠٠ وبداية للقضاء على جميع مشـــاريعه ٠ وتضافر الاستعمار ليساند نفسه أمام هـــذه المحنة التى أحاقت به ، وأخذ يقلب مختلف الحلول للخروج من هذه الازمة ٠٠ فمن رأى بمهادنة ابن عبد الله حسن ومن رأى باستدراجه فى مفاوضات تستطيع خلالها القوات البريطانية أن تعيد تجميع صفوفها استعدادا لمعركة جديدة ٠٠ ومن قائل بمواصلة استعمال العنف كرد شرف للذى حدث فى هذه المعركة ٠

وانتصر رأى الذين اقترحوا مفـــاوضة الملا ٠٠ ونزل الانجليز من عليـــائهم ليجلسوا معه على مائدة واحدة ٠٠ وقرروا ندب الحاكم الذى

نصبوه على الصومال ليطلب من الملا قبول مبدأ المفاوضة لحل الازمة التى نجمت عنها الحرب ، ولم يكن لهذه المشكلة فى نظره سوى حل واحد هو الجلاء من أرض الصومال ·· وبعدها تنتهى كل أزمة وتزول كل مشكلة ·

* * *

وفى شهر يونيو ١٩١١ ، اجتمع ممثلو الامبراطورية مع مهـــدى الصومال حول مائدة المفاوضات بالقرب من مدينة لاس عانو ·· وبدأها رئيس الوفد البريطانى بتمثيلية تحمل معانى الود والاحترام والأخوة ·· وألفاظ معسولة لا ترضى الا غرور المغرورين ·· كما قدم للملا العديد من الهدايا القيمة التى يسيل لها لعاب المأجورين ·

لكن الملا استمع الى هذه الألفاظ فلم تبهره ، ورأى هـــذه الهدايا فلم يتحـول ، وطلب الى الوفد عرض ما لديه من اقتراحات حسما للأمور وضمانا لعدم تضييع الوقت ، وهكذا وضع الانجليز أمام الأمر الواقع فى حزم واصرار لم يتمكنا بعده من استعمال أساليب المخادعة والمماطلة فبدءوا يعرضون سفارتهم التى من أجلها أوفدوا اليه ·

وكان طلب الحكومة البريطانية الذى حمله هؤلاء المفاوضون يتركز فى ضرورة وقف القتال فورا ، وأن يلقى أبطال الصومال سلاحهم ، وفى نظير ذلك تعترف حكومة صاحبة الجـــلالة البريطانية وحكومات الدول الاوربية الاخرى بمهدى الصومال محمد بن عبد الله حسن ملكا متوجا على الصومال كله · وقد أرادت بريطانيا أن ترضى بهذه السـياسة منطق الغرور الذى يصيب الزعماء والقادة فيتهافتون على المناصب حينما تعرض عليهم ·· تاركين كفاحهم مهملين مطالب شعوبهم فى ســبيل ارضـــاء نزواتهم · وقد نجـــح هذا الاسلوب الذى اتبعته الحكومة البريطانية مع حكام عارضوها فى أول الامر فى الشرق العربى ، ثم ما لبثوا بعد أن عرض عليهم الحـــكم والامارة والملك · أن صـــاروا خداما مخلصين للعرش الانجليزى ·

واستمع المفاوض الاستعمارى لأغرب رد تلقاه فى هذه الآونة · وهو رفض مهدى الصومال لهذا العرض المغرى على عكس ما كان يراه ويلمسه فى زعماء آخرين فضلوا مصالحهم الشخصية على مصلحة وطنهم ومواطنيهم فقد اشتم فى عرضهم رائحة الخيـــانة ورأى فى أسلوبهم المكر والخداع للتغرير به ·· فأمر رجاله باعادة الهدايا التى بعث بها اليه نائب الملكة فى الهند ·· مع رسالة منه بأنه لا يبيع بلاده بهذا الثمن البخس ·· ثـم وجه حديثـــه اللاذع الحافل بالسخرية لمنطق الاستعمار وعلاجه للأمور بعقار واحد ، هو الرشوة والخيانة ، فقال للوفد البريطانى هذه الكلمات التى تعد دستورا للأمانة فى النضال والصدق فى القيادة ·

« اننى لم أفكر فى يوم من الأيام أن أكون ملكا .. ولم يكن هدفى لا فى الماضى ولا فى المســـــتقبل .. ولكن هدفى الوحيد هو أن أطرد الاستعمار من بلادى [illegible] وأطهرها من الشرك والمنكر [illegible] »

وكان هذا التصريح حدا فاصلا لهذه المفاوضات ومؤذنا بانتهائها بغير النتيجة التى آمل الاستعمار الوصول اليها .. فقد كانت صلابة مهدى الصومال فى موقفه تجاه قضية بلاده .. لا تثنيه المغريات .

* * *

استأنف الملا بن عبد الله حسن كفاحه ، واستنهض رجاله لمواصلة النضال ضد الاستعمار البريطانى الذى قللت من هيبته الضربات المتلاحقة التى كالها له ثوار الصومال . وأمام هذه الخطة التزم الجيش البريطانى خطة الدفاع ومحاولة حصار قوات المهدى فى دائرة محكمة لا تصل اليها المؤن أو الامدادات . واستمرت سنوات الحرب طويلة ثقيلة كلمـــا مر عليها عام كلما زادت القوات البريطانية من قوتها ، وكلما ضعفت قوات الملا لطول النضال وقلة الامكانيات .

ثم كانت نهاية الحرب العظمى الاولى التى خرجت فيهـــا بريطانيا منتصره . فرأت أن تدعم هذا الانتصار بالقضاء على مقاومة شعب الصومال لقواتها ونفوذها .. فاستعملت بتوسع ســـــلاحا جديدا فى الحرب هو الطائرات التى ألقت قنابلها على مقاتلى الصوماليين وشنت غاراتها المتلاحقة على رجال مهدى الصومال بصورة وحشية غادرة لتقضى على كل أمل لهم فى الانتصار أو حتى مواصلة الكفاح .

وظلت الحرب الجديدة برغم ذلك أكثر من ثلاثة أعـــــوام وقوات الصومال تناضل فى سبيل حريتهـــــا ، وبطل ثورته ابن عبد الله حسن يحشد الحشود ويجمع الفلول لمواصلة القتال حتى كان عام ١٩٢٠ حينما أنزل المستعمر الانجليزى الهزيمة بقواته وعمل على تشتيتها بكل ما أوتى من قوة وضراوة . وقيل ان مهدى الصومال قد جرح فى احدى هذه المعارك الختامية واضطر للهرب الى حدود الحبشة ليعيد تنظيم صفوفه .. ولكنه مات شهيدا متأثرا بجراحه . وكان ذلك فى العام التالى .. أى ١٩٢١ .. بعد أن استنفد كل أساليب المقاومة والقتال والتضحية ثم الفداء .

* * *

وواصل الاستعمار حربه لمهدى الصومال حتى بعد وفاته .. اذ قرر البحث عن جثمانه للتمثيل به ، كما فعل مع جثمان مهدى السودان الذى

جعلت ملكة بريطانيا من جمجمته منفضة لسجائرها وسجائر زوارها ، وأعلن عن مكافآت سخية لمن يأتيه [illegible] فشلت جهوده تماما [illegible] وطني [illegible] هذا [illegible] لا يصل [illegible] الأجنبي .

* * *

وبهذا يسدل الستار على أروع فصل من فصـــــول الكفاح في بلاد الصومال ضد قوى الاستعمار الغاشم ، حمل لواءه وتزعم حركته مهدى الصومال محمد بن عبد الله حسن الذى وقف في ميدان القتـــال خمسة وعشرين عاما يدافع ببسالة وشجاعة عن حرية بلاده وكرامة مواطنيه . كانت انتصاراته ترتفع الى الذروة أحيانا وتخبو أحياناً أخرى ، وتعرضت ثورته للفتن والمؤامرات ومحاولات الخونة في الداخل ، وقوات الاستعمار الغازية الآتية من الخارج . وواجه أساليب المهادنة والخداع ومنطق القوة والجبروت .. وواجه كل هذا بأسلوبه الفريد الذى عجز الاستعمار عن قهره في معركة مشرفة .. وانتظر حتى طالت مدة الكفاح وبدأ الضعف يتسرب الى بطل الصومال بعد هذه الاعوام الخمسة والعشرين . وتكاثر عليه الاعداء وتعرض لألوان الخيـــانة والفتنة التى عنى الاســـتعمار بمساندتها .. بعد أن فشل في مواجهته مواجهة الرجل للرجل .

# الفصل الرابع
# فلسفته في الكفاح

في احكام وواقعية ٠٠ اختط الملا سياسته التى جعلها منهج كفاحه وأسلوب تعـــامله مع مواطنيه من ناحية ٠٠ وضد الاستعمار من ناحية أخرى ٠٠ هذه السياسة شرحها فى رسائل بعث بهـــا الى أصدقائه فى النضال من العلماء والقادة وأوضح فيها أمورا كثيرة تعطينا صورة صادقة عن أطوار كفاحه لانقـــاذ الصـــومال من الاستعمار الاوربى والظروف والملابسات التى أحاطت بها فى الداخل وفى الخارج ٠

ولحسن الحظ وصلتنا بعض هذه الرسائل التى كتبها الملا كمـــا هى ٠٠ لم يدخلها التزييف والتشويه ولم تفسدها الأهواء ٠٠ كما يحدث فى أية رسالة وطنية وصلت الى أيدى الاستعمار ليطمس معالمها ويخفى حقيقتها لتظهر فى غير صورتها شوهاء لا لون لها ولا وزن وقد اختفت معالمها تماما ٠

وقد اختار الملا اسم « مباحث المنافقين » ليكون عنوانا لرسائله ٠٠ ولا ندرى بالضبط لماذا اختار هـــذا الاسم بالذات ؟ ونرجح أن المنافقين لعبوا دورا كبيرا فى عرقلة استقلال الصومال ، مما أثر فى نفسية ثائر الصومال فسجلها على هذا الشكل ٠ وفى مباحث المنافقين ٠٠ أوضح الملا حقائق ملموسة عن ثورة الصومال ضد الاستعمار الاوربى الذى طمع فى اقتسام أجزاء من هذا الوطن الافريقى ، وشرح قصة كفاحه لشحذ الهمم وتكتيل القوى لمواجهة هذا العدو المشترك وما صادفه من صعاب لايقاظ الوعى وتحفيزا للناس على القتال ٠٠ وروى المأساة التى انتهت باستعمار أربع دول لبلاده وسيطرتها عليها ومحاولاتها لتحطيم الروح المعنوية بين المواطنين ٠

وننشر فيما يلى هذه الرسائل التى دونها الملا كما هى دون اضافة أو تعليق ٠

**الرسالة الاولى :**

وفى رسالته الاولى فى منهجه « مباحث المنافقين » شرح موقفه من أعدائه وأعداء بلاده فى الداخل والخارج ، وأوضح حقيقته للرأى العام ليعلم ما يحاك ضده من مؤامرات وفتن .. فقال بعد حمد الله والصلاة على رسوله :

« نحن قوم قاموا بالعزم والايمان وعقدوا نيتهم أن يدافعوا عن دينهم ووطنهم وشرفهم بآخر قطرة من دمهم .. يجاهدون فى سبيل الله تعالى لاعلاء كلمة الاسلام الى أن يحققوا غرضهم أو يستأصلوا من فوق الارض . ونحن قوم نكافح لنطهر جميع أنحاء بلاد الصومال من الأعداء الكافرين المستعمرين لأننا نعلم تماما أنه لا يمكن لنا أن نعبد الله فى أرضنا آمنين مطمئنين ، ولا أن نقيم أحكام كتابه ولا أن نستثمر خيراتنا ، ولا أن نستنشق نسيم الحرية فيها الا بعد تحقيق الغرض المذكور .

ونحن قوم حاصرتهم الكفار والمنافقون من جميع الجهات ، وأحاطتهم كاحاطة الهالة بالقمر والسوار للمعصم ، وقطعت عنهم جميع المواصلات والامدادات الحربية والغذائية ، ونحن قوم ملئت صدورهم من الغضب والغيظ لأجل تخاذل المسلمين وتخالفهم مع كثرتهم ، وتعاون المستعمرين وتوافقهم مع قلتهم فى بلادنا .

ونحن قوم سلخهم رهطهم وباعهم شعبهم بثمن بخس من عدوهم ونحن اتفقت لابادتنا الحكومة الانجليزية والحبشية والايطالية والفرنسية وجميع القبائل الصومالية التى اقتسمت لرعوية تلك الدول باختيارها وطوعها يقودها سلاطينها وزعماؤها وتحرضها علماؤها على حربنا .

ونحن قوم لا يخضعون لأعداء دينهم ووطنهم ولو كثرت جنودهم وتتابعت هجماتهم وتنوعت آلاتهم المهلكات واشتدت وطأتهم علينا وانضمت الى صفوفهم أكثرية الوطنية الصومالية وآخرون من المستخدمين الأجانب . لأننا نريد ونحب بأموالنا وأنفسنا الجنة من الله تعالى وأن نطهر بتضحيتنا فى الجهاد وصدق ايماننا واسلامنا .

ونحن قوم لا نسمح للكفار أن يحتلوا بلادنا أو يحكموها ولا نتكاتف على ذلك مع المستعمرين لا بعوض ولا بتهديد .. ولا نذل قوانين الشريعة وأحكامها ولا نجعلها خاضعة لقوانين الكفرة وأحكامها الطاغوتية بل نعلن حربنا على الزعماء وعلى الذين يسمحون لهم بدخول بلادنا واستعمارها .. ونوجه لومنا للعلماء والقضاة الذين يهينون شريعتنا الاسلامية ويجعلونها تحت أقدام الكفرة الفجرة .

تلك أحوالنا التى سألتنا عنها .. أما عن أحوالنا مع أكثرية القبائل

الصومالية التي تتجاوب معها فيدل أيها الشيخ أنه لما آزمعت في أوائل القرن الرابع عشر الهجرى بعض الدول أن تســتعمر بلادنا وهي الدول الانجليزيه والايطالية والفرنسية والحبشية ·· واتجهت أفكارها الى ذلك ودخلت الاولى الى البلاد من ميناء بربرة بمكاتبة الاهالى والثانية من مقدشيو والثالثة من جيبوتي بتلك الصفة ·· والرابعة بالقوة حينما فتحها مينيليك في ١٣٠٥ هجرية من يدى حاكمها الصومالي الامير عبد الله اتفقت عند ذلك تلك الدول الاربع ألا تتصادم فى استعمار البلاد الجديدة وتكاتبت مكاتبات سرية يجهلها جميع المواطنين ، وتجعل لكل دولة من الدول الاربع قسطا فى بلادنا بتلك المكاتبات السرية ·· ولكنها لم تخطط حدودا فى البلاد كما لم تفتح فيها طرقا ، لانه قبل تحقيق ذلك الحلم أعلنا عليها جهادنا فكان حاجزا بينها وبين ذلك ، ولن يكون لها ان شاء الله تحقيق أمانيها وتخطيط حدود أرضية فى بلادنا مادمنا على قيد الحياة ولن تنغصها شيئا الخطوط المكتوبة في الأوراق .. ثم ان الدولة المذكورة بدأت تبذل أموال تافهة لزعماء القبائل ورؤساء العشائر لتشـــترى منهم دينهم ووطنهم وعزهم بتلك الدريهمات ·

وكان الزعماء لا يفهمون مرارة الاسترقاق والاستعمار ولا يدركون ما سيحصل لهم ولشعوبهم من الذل والخزى والهوان من بعد ما خلا الجو ممن يعارضون تلك الدول ·· ولا يلتفتون الى أن تلك الدول تريد استثمار بلادهم واستئثار خيراتها دونهم ·· ولا تريد أن تجرى خيرات بلادها الى هؤلاء الجهلاء والأغبياء ولا يفهم هؤلاء الأغبياء أن المرتبات والمشاهرات كمثل ما يعطى للطير والحيتان لاصطيادها ·

ومن جهة أخرى فتح المبشرون مدارس فى البلاد ليغيروا دين الشعب يدينهم ·· فقدم الآباء أولادهم الى تلك المدارس المضللة لعقول الاطفـــال والتى تنشئهم نشأة غير اسلامية · ونشأ أيضا فى المدن التى سكنتها تلك الدول الاربع شرب المسكرات والمخدرات ، وفتحت العاهرات أبوابهن دون خجل ولا وجل · فلمـــا علمت ورأيت ذلك ثارت فى نفسى شدة الغيرة الاسلامية واشتعلت فى قلبى الجذوة الوطنية والتهبت روحى غضبا وكادت تخرج من الهيكل الجثمانى ·· فبدأت أخطب فى المسجد والمحـــافل ·· وألقى بين الامة خطبا حماسية دينية ·· واتلو الآيات الواردة فى الوعد والوعيد والأمر والنهى لكى أنبه الشعب قبل أن ينتشر الوباء فى جميـــع البلاد ·· ويستولى العدو على جميع أنحائهـــا ·· ولم أزل أحذر الشعب وأناديه ولكن لا حياة لمن تنادىَ ولا حكمة لمن أحذّرهُ ·

وقد قالوا لى لما نهيتهم عن تقديم أطفـــالهم للمبشرين وعن تجنيد رجالهم للعدو الغاشم : « انك تريد أن تقطع أرزاقنـــا وتهلكنا بالفقر

والجوع . فقلت لهم : ان رزقكم على الله تعالى لا على غيره .. ألم تسمعوا قوله تعالى : « وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » فعادوا لى ومن أين يأتى الله برزقنا اذا أطعنا كلامك فقلت لهم ألم تسمعوا قوله تعالى « وفى السماء رزقكم وما توعدون » ..

فلما سمعت منهم مثل هذا الاحتجاج لى بأمر الرزق شرعت أرجوهم وأنهاهم عن تقديم الطاعة للكفار فى كل شىء ، وعن الخضوع لأوامرهم ونواهيهم . واستدللت لهم بالآيات القرآنية التى تنهى المسلمين عن موالاة الكفار فقالوا لى هذا أشد وأعجب من مسألة الرزق لأنك تعلم أن القوة فى هذه الوقت للكفار وأن جميع المسلمين ضعفاء لا حول لهم ولا قوة .. واذا لم نطع الكفار ولم نقبل دعوتهم هلكنا بسبب ذلك .

فقلت لهم ألم تسمعوا قوله تعالى « فاياى فارهبون » وقوله تعالى « فلا تخشوا الناس واخشون » فلما عجزت فى حملهم على قبول ذلك منى قلت لهم انكم اذا جاهدتم الكفار واستعددتم لهم ستكونون أمة قوية ولا تخافون اذ ذاك من رجال أمثالكم فى الأعضاء الجسمية والفكرة العقلية . وقرأت عليهم الآيات الواردة فى فضل المجاهدين وما أعد لهم فى الآخرة . فقالوا الجهاد وقته متأخر وسنجاهد فى أوان الجهاد عند خروج المهدى المنتظر فعندئذ تكون لنا العصى بنادق ومدافع وستكون آلات الكفار عصيا .. أما اذا جاهدنا الآن وليس معنا آلات حربية فلا يحصل لنا الا الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة من الله .. والله سبحانه يقول « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » فقلت لهم : يا أيها الجهلاء ضللكم علماؤكم عن الحقائق كلها فان معنى الآية الكريمة « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة بترك الجهاد والدفاع عن دينكم ووطنكم وأنفسكم ، وليس معناها أسلموا أوطانكم وأنفسكم الى الكفار فتتحكم فيها ما تشاء وما تريد » . وقلت لهم : ان الله تعالى قال فى كتابه العزيز : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » . وقال « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » .. وقال : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم أن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون » .. الآية .. وقال : « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال » .. الآية : فاذا سمعتم هذه الآية وأمثالها فمن أين يأتى علماؤكم بتلك الخرافات المزعومة ؟ .

ولكنهم لم يتعظوا بشىء من الآيات والأحاديث التى ذكرتها بل ازدادوا طغيانا لا عنادا ، وكانت النتيجة وشى بعضهم وسعى بعض علمائهم الخونة بين الحكومة الانجليزية وبينى بالافساد ونصح لها باعتقالى وقال لمن لم يبال كلامه ستندم الحكومة وقتا لا تنفعها فيه الندامة .. وعلمت أن واحدا منهم يقال له ( اوجاس ) حصل على مشاهرة جارية بتلك النميمة ..

فعند ذلك ابتدأت من المدينــــة « بربرة » التى هى مركز الحكومة الانجليزية واتجهت نحو القبائل البعيدة عن المدن التى فيهـــا تلك الدول المذكورة لكى أجد من بينها رجالا يتأثرون بالمواعظ القرآنية والنصـــائح الاسلامية ، وكنت أوقن أنه لا تمكن مجابهة المستعمرين ومدافعهم بدون قوة ترد جماحهم وتوقف احتلالهم وأن مجرد الوعظ بدون قوة لا تفيد شيئا ٠

فشرعت حينئذ فى استعداد سريع سرى من جهة وخطب ومواعظ مؤثرة من جهة أخرى فكنت أدعو القبائل الصومالية من الشك والكسل الى اليقين والعمل ، ومن التخالف والتخاذل الى التعــــاون والتكاتل ومن الخوف والهلع الى الجرأة والاقدام ومن الاستسلام والذلة الى الاستبسال والعزة ٠٠ فاجتمع لدى عدد كبير من القبـــائل الصومالية والتفوا حولى وغرست فى نفوسهم محبة دينهم ووطنهم وبغض عدوهم من الكافرين ومن يساعدهم ، وانطبعت معانى الآيات القرآنية فى نفوسهم وفهموا المقصود منها وتعاهدوا على الجهاد والدفاع عن الدين والوطن والشرف وتحـــالفوا وأخذوا فى الاستعداد بالرماح والســـيوف والعصى والبنادق القليلة والخيول ٠

ولما علم المستعمرون بما قمنــــا به من الاستعداد أرادت الحكومة البريطانية أن تمسكنا بغتة وتستأصلنا فجأة ٠ فلما علمنا بذلك ابتعدنا عن جهتها لكى نتم اســــتعدادنا المكشوف ٠ فأعلنت الحرب على قبيلة تساعدنا بالرجال وصادرت البعير التى حملت بضائعها الى بربرة ٠٠ فعند ذلك أعلنت الجهاد عليها وعلى جميع المستعمرين وعلى جميع القبائل التى تساعدهم فى حربنا ودعوت جهارا جميع القبائل الصومالية الى الدفاع عن الوطن والدين وأرسلت الوفود والرسائل الى جميع أنحاء البلاد ٠

ولمـــا ابتعدنا عن الحكومة الانجليزية لنتم اســـتعدادنا ونسلم من مباغتتها ومفاجآتها غزت الحبشة علينا من هرر بموافقة بينها وبين الحكومة الانجليزية على أن تغزو علينا من كل جهة فنالت الحبشة من بعض القبائل الموالية لنا بعض أموال ودماء فخرجنا فى أثرها فدارت بينهـــا وبيننا معركة ٠

وفى يوم تلك المعركة نفسه أغارت قبائل صومالية على أموالنا وأهلنا الذين تركناهم فى « دك » وتلك القبائل أرسلتهـــا الحكومة الانجليزية علينا وأمدتها بالمال ولكننا انتصرنا فى المعركتين معا ٠

ثم بعد قليل من المعركتين اللتين خضناهما بدون استعداد لهما قامت بعض القبائل بمؤامرات علينا دبرها ( منيليك ــ ملك الحبشة ) مع بعض زعماء تلك القبائل وكان غرضهم أن يقتلوا جميع رجالنا فى يـــوم واحد

حتى لا يفلت منهم شخص • فاجتمع من تلك القبائل خمسون ألف رجل في ( كره دم ) يقودهم الزعماء الذين دبروا المؤامرة •

وكان هدفهم أن نختلط بهم ونحسبهم أنهم قبائل موالية لنا ومعادية للحبشة • وقالوا لنا اننا نريد أن نغزو الحبشة ونريد أن يقـودنا رجل منكم •• ولكن لحسن الحظ قبل أن نقع فى الشرك استعجل بعضهم وقتل منا رجلا يقال له الحاج عباس وهو يصلى صلاة العصر • فانكشفت المؤامرة وافتضحت مكيدتهم ثم قررنا أن نحذر القبـــائل كلها كما نحذر الدول المستعمرة وقررنا أيضا أن نبتعد عن تلك القبائل التى قامت بتلك المؤامرة الخبيثة لكيلا نخوض حروبا مع تلك القبائل الجاهلة •

وحينما ابتعدنا عن تلك القبائل المذكورة علمنا فى الوقت نفسه أن الحكومة الانجليزية ومعها قبائل صومالية غزتنا من جهة الشمال ، وأن الحبشة ومعها قبائل صومالية كثيرة غزتنا من جهتى الجنوب والغرب • فاتجهنا نحو المشرق لأننا لم نستكمل استعدادنا فعلمنا أيضا أن القبائل الصومالية الموالية للحكومة الايطالية غزتنا من جهة الشرق بايعاز واعانة الحكومة الايطالية •

علمنا أيضا أن تلك الغزوات سلسلة واحدة تتصل حلقاتهـا دبرت لتطويقنا من جميع الجهات • فقررنا أن نتجه نحو القوات الانجليزية لأنها المثيرة علينا جميع تلك الامم ، فحاربناها وانتصرنا عليها ولكن لم ينفك الحصار عنا فيما بين ( كلادوورطير ) الجهات الاربع ••

فاتجهنا مرة أخرى الى معسكرات الحكومة الانجليزية لأننا نعلم أننا اذا انتصرنا عليها تخاف البقية فانتصرنا أيضا •

ولأجل ذلك اتجهنا الى دفاع العدو وأذنابه وقررنا أن نواصل الكفاح المرير الأليم وبدلنا لهم الضربة بضربتين واللاطمة بلطمات ، وقاتلناهم بعزم وشجاعة وسياسة وحكمة •

وبعد ما ذاقوا العذاب والقســـوة منا سمونى مع سيدهم الكافر الانجليزى ( الشيخ المجنـــون ) ولا أستبعد ذلك من الحكومة الانجليزية لسببين ••

١ ـ أنها تقلد فى ذلك الامم السابقة التى كانت تتهم المصلحين من الأنبياء وغيرهم بهذه التهمة •

٢ ـ أنها تستبعد محاربة رجل واحد منا ومناوأته للدول العظمى وليس معه شعبه ولا معدات من الآلات والاموال وغيرها وهو منفرد بهذه الفكرة الحماسية •

وقالوا للدراويش وهم رجالي : اننا علمنا ممن رأى بعينه أن الحكومة الانجليزية تتسلح بآلة تحرق الارض وتحرق جميع بلاد الصومال وستغزو الدراويش هذه المرة بتلك الآلة ٠

فلما علمت هذه الأرجوفة سكنت فزع الامة وقلت لهم : ان تلك الآلة اذا فرضنا وجودها فهي لن تحرقنا وحدنا بل ستحرق معنا جميع الكفار الذين في أرضنا ومن يساعدونهم ، وهذا ربح لنا وخسارة عليهم لاننا نموت شهداء في وقت واحد والشهادة هي غرضنا الرئيسي ٠ والكفار سيفارقون الدنيا وهي غرضهم الأول وسيدخلون النار المؤبدة عليهم ٠٠ وأما اذا ظننتم أنها تحرق الأماكن الخاصة بنا ولا تحرق غيرها فهذا أمر لا يمكن تصوره لأننا نقدر أن نهرب من الاماكن المحترقة الى أماكن غير محترقة وقد قال تعالى في شأن أمثالهم : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا »

وبعد أن يمضي في توضيح صفات وخصائص المنافقين والخونة ويبرر بالدليل العملي اضطراره الى مقاتلتهم يقول : «فاذا علمت ذلك فقد اتضحت أسباب الحروب التي وقعت بيننا وبين القبائل الصومالية ، كذلك اتضحت لك الأدلة الشرعية التي اعتمدنا عليها في قتالهم ومحاربتهم واستبحنا لها دماءهم وأموالهم ٠ ولولا ما قمنا به من محاربتهم ودفعهم عن أنفسنا واحتراسنا من مؤامراتهم الداخلية واستعجالنا لتحطيم شوكة المدبرين للانقلاب علينا واستكشاف الجواسيس المنتشرة في جيوشنا : لو لم نفعل ذلك ما عاشت نهضتنا أكثر من شهر واحد ٠٠ ولأسرتنا القبائل المذكورة بسلاسل المستعمرين ولتم شنقنا في أوائل نهضتنا وقيامنا بالجهاد والدفاع على مشانق الكفار ٠

انى قد حاولت مرارا وأردت كثيرا أن تقوم القبائل بالجهاد والدفاع عن دينها ووطنها مستقلة ومنفصلة عن الدراويش من رجالي وتعهدت لكل قبيلة تفعل ذلك بالسلاح والمال ٠ وكان غرضي من ذلك ألا يدخل في خواطرهم أننا نريد السيطرة عليهم ٠ فلم نر أية قبيلة تجيب وتقبل ٠٠ اللهم الا قبيلة « بمال » ولكن القبائل الصومالية التي في بلادهم والجيوش الايطالية بددت شملها وكسرت قوتهم وشوكتهم وقضت على نهضتهم في مدة وجيزة ٠

والخلاصة أننا لا نرجو الانصاف في الاخبار عنا والتحدث عن حروبنا مع قوم أراقوا دماءنا ونهبوا أموالنا وحاربونا سنين كثيرة وأذونا بأشعارهم وألسنتهم وفعلوا بنا كل ذلك لأجل مساعدة عدونا الكافر المستعمر ولأجل استجلاب رضائه وأمواله واستبعاد غضبه وسخطه ٠

وانصح لكل منصف يريد أن يعرف حق المعرفة عن أحوالنا وأهدافنا وأسباب حروبنا وعن المعارك التى انتصرنا فيها أو انتصر علينا وعن الأمور التى أنكرناها على الشعب فمن أراد ذلك فأنصحه أن يأخذها من أشعارى الصومالية التى نظمتها لكى تكون تاريخا عنى لشعب الصومالى من بعدى وخبرهم عن غرضى الوحيد أو أن يأخذها من خواص خوانى (الدراويش) الذين ناضلوا معى .. ولكنى أحذر كل منصـــف أن يأخذها من الرجال الذين كنا نحاربهم فى الميدان أو باللسان ســــواء من المستعمرين أو من القبائل التى كانت معهم ولا من الذين أخذوها منهم .

وأختتم جوابى بالسلام على من اتبع الهدى وجاهد الكفار والمنافقين وكل من يساندهم أو يعـــاونهم واللعنة على الكافرين وعلى الذين يبيعون دينهم ووطنهم وشرفهم .

هذا والسلام .. »

**ورسالة أخرى تقول :**

وفى رسالة أخرى بعث بها الى أربعـــة من العلماء يأمرهم أن يقوموا بارشاد الامة فى الجهاد والاتحاد وهم : الشيخ حسين بن آدم – والشيخ عبد الله بن عروس – والشيخ الحاج يوسف بن عبد – والشيخ المعـــلم ابراهيم – كتب بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله يقول فى مقدمة الرسالة :

« ومراد هذه الرسالة أمران : أحدهما ابلاغ سلام الله عليكم وعلى من حضر لديكم والثانى : أريد منكم وأطلب اليكم مؤكدا حيث أنكم من العلماء الأعلام الذين هم الهداة أن تقوموا لاعلاء كلمة الدين الاســـلامى ولتوحيد صفوف أمتنا الصومالية لمقاومة الاعداء الذين يحقدون ببلادنا ويستعبدون أمتنا وينهبون شرفنا وعزتنـــا ويحاولون اذلال ديننـــا الذى هو أشرف الأديان .

وحذروا الامة عن الاشياء التى تجلب لهم الهلاك فى الدارين وتسبب لهم الكفر والارتداد أعاذنا الله من الجميع ومن ذلك تكفيرهم لنا مع كوننا مسلمين موحدين مجاهدين فى سبيل الله لاعلاء كلمة الله ولانقاذ بلادنا من براثن الأعداء الكافرين ومخالب أعوانهم المنافقين المكذبين .

وبعد أن تحدث عن عقيدة الدراويش من رجاله وخلوها من الانحراف والزيغ واستبسالهم وقوتهم فى الدفاع عن دينهم ووطنهم وايمانهم الراسخ بحقهم فى الحرية والنصر على الاعداء الطامعين أخذ يوجه نظر العلمـــاء الى ضرورة نصح الامة فقال :

« ومع ذلك يكفروننا بلا موجب ٠٠ فيا علماء الاسلام ٠٠ حذروهم عن ذلك وحذروهم عن اتباع الكفرة والسكن معهم والتعظيم لهم ونسبة العزة والمتعة اليهم والتحاكم اليهم والمعاملة معهم ودعوة الرعوية ونصب البيارق وجلب البضائع الى بلدهم والتعمير به فان ذلك كله مما يجلب الويل والهلاك ٠

أما اتباع الكفرة فلا خفاء على أنها من المكفرات ٠٠ وأما السكن معهم فتحريمه ظاهر بالكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى : «ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا» ٠

وأما الاحاديث فمنها قول الرسول « أنا برىء من كل مسلم مقيم بين أظهر المشركين قالوا يا رسول الله ولم ؟ لا تراءى الناران » ٠

وأما التعظيم لهم فهو مما يجلب الكفر ٠٠ وقد أنكر العلماء ايمان من يعظم الكفرة لان الله أمر باهانتهم وقال فى حقهم «حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» ٠

# الفصل الخامس

# الصومال بعد المهدي

لم يكن اختفاء محمد بن عبد الله حسن من الميدان باستشهاده يعني انقراض حركة المقاومة والكفاح ضد الاستعمار ٠٠ فقد كانت السنوات التى عاشها قائدا وزعيما مدرسة تلقى فيها الصوماليون جميعا أساليب الفداء والاستبسال ، وحب الوطن وبغض مغتصبه ، وتوارث الابناء عن الآباء هذه السياسة التى أصبحت تقليدا يرمز للكفاح الوطنى ، وهذا يدل على عمق الجذور التى غرسها مهدى الصومال فى النفوس ، واصالة المبادىء التى نادى بها ، واستمر الكفاح متصلا منذ استشهاده فى عام ١٩٢١ وحتى عام ١٩٦٠ وهى السنة التى حصل فيها الصومال على استقلاله وأصبح دولة ذات سيادة وانضم الى هيئة الامم المتحدة ٠

وفى خلال الاعوام ٠٠ شهد الصومال ألوانا من سياسة التحكم والسيطرة التى فرضها الاستعمار ٠٠ شهد الجبروت البريطانى والانحلال الفرنسى والبطش الحبشى والقسوة الايطالية ٠٠ وشهد زوال عهود وقيام أخرى ٠٠ وفى خلال هذه الفترة احتلت ايطاليا الحبشة ثم انهزمت ايطاليا فى الحرب العظمى الثانية ودخلت بريطانيا مكانها فى الصومال ، ثم وضع الصومال تحت الوصاية الدولية الى أن ظفر بحقه فى الحرية والسيادة عام ١٩٦٠ ٠

* * *

وخلال هذه الفترة الطويلة التى أعقبت زوال الادارة المصرية من الصومال ثم سيطرة الدولة الاستعمارية عليه ٠٠ وقيام مهدى الصومال بحركته التحررية الوطنية لاستخلاص حقوق بلاده ، ثم انتهاء هذه الحركة الى ماانتهت اليه ليستأنف الاستعمار تحكمه فى البلاد حتى كان العهد الوطنى واعلان الاستقلال ٠٠ نقول : انه طوال هذه الفترة عاش الشعب الصومالى فى عزلة سياسية وضمن [illegible] الصحيحة ٠٠ فقد رأى الاستعمار ضرورة القضاء على مقومات هذا الشعب الذى

ازدهرت طوال سنوات عهد الادارة المصرية التي جعلت منه شعبا واعيا متفتحا ٠

وكان الحكم الفاشيستي من ناحية ، والفرنسى البريطانى الحبشى من ناحية أخرى يكونون طوقا فولاذيا يكاد يخنق الشعب الصومالى ٠ ومع كل مالاقاه الشعب من صنوف الاضطهاد ووسائل ابعاده عن سبل الحياة والمدنية الا أنه لم يستسلم لهذه القيود الثقيلة ٠٠ بل مضى يتلمس الفرص لينتفض انتفاضات تحررية تعيد اليه ثقته لنفسه وايمانه بخلاصة من الاستعمار الأجنبى ٠٠وكان أهم هذه الانتفاضات تلك التى حدثت أثناء الحرب العظمى الماضية وفى عام ١٩٤١ بالذات ٠

* * *

أجمعت العناصر الوطنية فى الصومال على ضرورة انتهاز فرصة اندحار ايطاليا فى الحرب وحاجة بريطانيا الى تأييد الصومال وغيره من الدول ٠٠ فتقدموا ببرنامج سياسى الى الادارة البريطانية التى كانت مشرفة على الصومال كله منذ عام ١٩٤٣ يحقق آمال الصوماليين فى الحرية والاستقلال ٠٠ وقد جاء فى هذا البرنامج تصفية الاستعمار من كل أجزاء الصومال وتوحيدها فى ظل علم واحد ودولة واحدة والغاء التعصب القبلى والطائفية الدينية وكل التقاليد الرجعية المناهضة لمضمون القومية والدولة وأن يكون الصومال جمهورية ديمقراطية ودينه الرسمى هو الاسلام ٠

هذه هى السياسة الداخلية التى رسمتها الهيئات الوطنية الصومالية المنضوية تحت لواء حزب نادى شباب الصومال ٠٠ وهناك برنامج للسياسة الخارجية أقره الاعضاء ويتلخص فى ايمان الحزب بميثاق الامم المتحدة ويرغب فى توثيق عرى العلاقات مع كل الشعوب الحرة المحبة للسلام ٠٠ كما يسعى الحزب نظرا لكون الصومال من العالم الاسلامى فى توثيق روابطه بكل الدول الاسلامية الأخرى ٠ كذلك أعلن الحزب عن برنامجه الاجتماعى والاقتصادى لرسم مستقبل الصومال ٠

وقد وقف حزب نادى شباب الصومال منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ندا عنيفا للاستعمار ومحاولات التسلل والمساومات الاستعمارية لتقييد حرية الصومال ، ومن ذلك رفضه التام لمشروع بيفن عام ١٩٤٦ الذى يقضى بمساعدة الصومال فى الحصول على استقلاله فى نظير انضمامه للكومنولث البريطانى ٠ فقد جاء فى البيان الذى القاه فى مجلس العموم البريطانى فى ٤ من يونيو من هذه السنة ما نصه : « ان الحكومة البريطانية ستساعد الصومال على تحقيق آلامل الكبير وهو الاستقلال والوحدة فى نطاق الكومنولث اذا رضى الشعب الصومالى بالوصاية البريطانية لمدة عشر سنوات »

كان رفض الشعب الصومالى لمشروع بيفن رفضا قاطعا لما فيه من انتقاص لسيادة الصومال وتقييد حريته فى عهد الاستقلال المزعوم٠٠ الامر الذى أثار الحكومة الانجليزية فقررت الانتقام منه فى صورة أو فى أخرى ٠ فكان تأييدها لمشروع سفورزا الايطالى ، والذى عرف فى مجال السياسة باسم مشروع «بيفن ــ سفورزا» الذى يقضى برجوع ايطاليا الى الصومال دون قيد أو شرط ٠

***

أما مقاصد التآمر الكبرى التى اضطلعت بريطانيا بها ٠٠ فكان هـذا الذى حدث مع الحبشة فى هذه الآونة ٠٠ والذى إعتبرته الدوائر السياسية العالمية افتئاتا على حقوق شعب الصومال ، وتعديا صارخا على سيادته التى انتهكها الانجليز مجاملة للحبشة ومحاولة رخيصة منهم لكسب ودهـا وصداقتها لأغراض المنفعة المتبادلة والمصالح المشتركة٠ فقد قدمت بريطانيا قسما كبيرا من أرض الصومال المجاورة للحـدود الحبشية فى منطقـة الأوجادين للحبشة ليكون جزءا من الوطن الحبشى بأهله ومدنه وقراه دون أدنى استشارة لهم ٠٠ وتصرفت فيهم كأنهم قطيع لارأى له ، فخلقت بهذا العمل أزمة ستظل قائمة الى أن يعود هذا الجزء المقتطع الى الوطن الصومالى الكبير ٠

حدثت هذه المؤامرة الانجليزية الحبشية على الصومال فى الوقت الذى تضافرت فيه العناصر الاستعمارية صاحبة النفوذ فى هذه المنطقة على أن تكون ايطاليا هى التى تتولى من قبل الامم المتحـدة شئون الوصاية على الصومال بصفتها الدولة السباقة الى احتلاله منذ عام ١٨٨٢ ، وصاحبة المشاريع الاحتكارية الكبرى فى مجال الاقتصاد ٠

***

ونجحت الدول الاستعمارية فيما هدفت اليـه مؤقتا ــ وذلك حين قررت هيئة الامم المتحدة عام ١٩٤٨ فى أثناء نظرها أمر تقرير مصـير المستعمرات الايطالية وضع الصومال الايطالى تحت الوصاية الدولية وأن تكون ايطاليا هى الدولة التى تتولى تنفيذ موضوع الوصاية باشراف مجلس استشارى للصومال يتبع هيئة الامم المتحدة تكون مهمته تقديم النصيحة للادارة الايطالية وأعداد تقرير سنوى عن أعمالها ومدى احترامها وتنفيذها لاتفاقية الوصاية ٠ وكان هذا المجلس يتكون من مندوبى دول ثلاث : هى مصر والفلبين وكولومبيا ٠

ورأت العناصر الوطنية أن تنتهز فرصة اعلان الوصاية الدولية عـلى الصومال والتى تنص على اعداد وتهيئة الشعب الصومالى للاستقلال وحكم نفسه بنفسه فى مدى عشر سنوات تبدأ من يوم تنفيذ الاتفاقية وتنتهى عام

١٩٦٠ لتقوم بأكبر عمل فى تاريخ بلادها الحديث فدعمت صفوفها وظهرت أحزاب ببرامج سياسية تحررية ترمى الى اعادة الوحدة للوطن الصومالى المقسم الى أقسام خمسة ٠٠ وعمل الجميع على تحقيق هذه السياسة ٠

❋ ❋ ❋

وفى ١٢ من اكتوبر ١٩٥٤ ٠٠ نفذت الادارة الايطالية تحت اشراف هيئة الوصاية الدولية أول بند من بنود استقلال الصومال وتهيئة شعبه لتولى زمام أموره وذلك حين احتفل بانشاء العلم الصومالى ، ثم بدأ مشروع صوملة الوظائف ، وكانت كل الوظائف تقريبا حتى ذلك التاريخ فى الجيش والبوليس ، فى الادارة والمصالح ، فى التعليم وشتى المرافق ، فى أيدى الأجانب الذين حرموا أصحاب البلاد هذا الحق طوال فترة الحكم الاستعمارى التى بدأت منذ خروج الادارة المصرية من هذه البلاد ٠ وجدير بالذكر أن الادارة المصرية كانت أول من نفذ مسألة تولى الصوماليين حكم أنفسهم بأنفسهم ٠٠ فقد عينت الحكام وكبار الضباط والموظفين وكل ما من شأنه تسيير دفة الامور فى البلاد ٠٠ فخلقت فيهم روح الثقة بأنفسهم ٠٠ وكانت نتيجة هذا العمل النجاح مائة فى المائة فى توطيد دعائم الحكم فى الصومال٠

❋ ❋ ❋

وكانت الحركة الانتقالية الكبرى بعد انشاء العلم الصومالى وصوملة الوظائف اجراء انتخابات لأول مرة فى الصومال لتكوين أول مجلس تشريعى فى البلاد ٠٠ يقوم فيه ممثلو الشعب باختيار الحكومة الجديدة ، ففى مارس ١٩٥٦ أجريت الانتخابات العامة التى أسفرت عن حصول حزب وحدة الشباب على غالبية المقاعد حين ظفر بثلاثة وأربعين من مجموعها البالغ سبعين مقعدا ٠٠ واقتسم الباقى الاحزاب الاخرى والجاليات التى دخلت معركة الانتخاب ٠٠ وقد شهد المراقبون الاجانب للشعب الصومالى بالوعى والادراك وبالحكمة التى أديرت بها المعركة الانتخابية حين تلاشت المهاترات وانعدمت الحزبية العمياء ٠٠ وظهرت مصلحة الوطن ومستقبل الصومال فوق كل اعتبار ٠٠ ورأى كل صومالى فى هذه الانتخابات فرصة للخلاص من المستعمر الذى اغتصب بلاده سنوات عدة ٠٠ سلب ثرواتها واستبد بأهلها وتاجر فى أرزاقها واقتسم أنحاءها ٠ ومن ثم دخلها كل منهم بايمان وعزيمة ألا يعود هذا المستعمر فى أية صورة ٠

❋ ❋ ❋

وانتهت الانتخابات لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تنفيذ اتفاقية الوصاية وهى تشكيل أول وزارة فى تاريخ الصومال الحديث من حزب الأغلبية الذى فاز فى الانتخابات وتحقيقا لهذا الأمر كلف الحاكم العام

الايطالى بوصفه المسئول عن تنفيذ اتفاقية الوصاية حزب وحدة الشباب بتأليف الوزارة ، واجتمع الحزب للتشاور برياسة السيد آدم عبد الله عثمان رئيسه لاختيار المرشح لرياسة الوزارة ٠٠ تمهيدا لاختيار أعضائها واستقر الرأى على أن يتولى الرياسة شباب صومالى متحمس ٠٠ من ذوى العصبية الشعبية هو السيد عبدالله عيسى بعد أن اعتذر السيد آدم عبدالله عثمان مكتفيا برياسة المجلس التشريعى • وكانت الوزارة مكونة من خمسة وزراء الى جانب رئيسها ٠٠ ولم يكن هناك وزيران للدفاع والخارجية حيث ظلت مقاليد الامور فيهما فى يد الادارة الايطالية بمقتضى الاتفاقية •

* * *

وكان أول خطر يواجه الصومال وهو على أبواب الاستقلال هو الخطر الامريكى الذى بدأ يتسلل الى هذه البلاد طمعا فى مركزها الاستراتيجى كساحل يطل على المحيط الهندى وعلى خليج عدن ٠٠ وتحتوى أرضه على الذهب الأسود ٠٠ وقد انتشرت بالفعل شركات البترول الامريكية بشكل كبير للبحث عن هذا المعدن ٠٠ ولم يكن هذا هو مظهر التسلل الامريكى فحسب ٠٠ بل كانت هناك مكاتب الاستعلامات التى انتشرت فى كل مكان للقيام بالدعاية للأمريكان وشراء النفوس بالمغريات ٠٠ كذلك عملت البعثات التبشيرية الامريكية على توسيع دائرة نشاطها حتى شملت القرى والاطراف البعيدة وذلك لتحارب دين الصومال ولغته ٠٠ وكانت مقاومة الوطنيين للمشاريع الامريكية أمرا يتمشى مع النهج الذى رسموه وهو تحطيم كل محاولة لاستعمار الصومال •

* * *

ثم كان هناك الخطر الايطالى ممثلا فى استعمار اقتصادى حتى يظل الصومال سوقا لانتاجه وموردا من موارده الاساسية ٠٠ وقد حاولت الحكومة الايطالية أن تجعل النقد الصومالى مرتبطا بالنقد الايطالى حتى يكون الاستقلال سهلا وبصورة منتظمة ٠٠ ولما كانت الشركات الايطالية برغم اضمحلال نفوذ ايطاليا فى الصومال بعد هزيمتها فى الحرب العظمى الثانية ظلت تسيطر بشكل ملحوظ على الاقتصاد الصومالى ٠٠ فقد رأت الحكومة الايطالية تقوية نفوذ هؤلاء وبقاء تحكمهم فى ظل الصومال الموضوع تحت الوصاية الدولية ٠٠ فكلفت بعض رجال القانون الايطاليين بوضع دستور للصومال يدعم هذا المركز ويكون فيه الحفاظ على تلك المصالح وذلك لمداومة النفوذ الايطالى على السوق الصومالية •

وقد كان هذا الخطر الكبير الذى يكمن وراء السياسة الايطالية أمرا لم يفت على الشعب الصومالى المتطلع الى تخليص نفسه من قيود الاستعمار المتيقظ الى المناورات الاستعمارية وأساليب الصيد فى الماء العكر ، فهب

يقاوم هذه الاتجاهات ، ويفضح هذه الاساليب دون هوادة ايمانا منه بأن هذا العمل فيه خلاص من هذه القيود وتلك المناورات .

* * *

ثم كانت محاولات فرنسا للاحتفاظ بنفوذها فى الصومال.. وخاصة أنها خرجت من الحرب ضمن المجموعة المنتصرة ، وبرغم هذا الشعور فانها كانت تحس فى قرارة نفسها بالهزال والانكسار كدولة من الدرجة الاولى. ورأت فرنسا أن علاجها هو فى الاحتفاظ بمستعمراتها فى الخـــارج حتى تضفى عليها قوة ومنعة .. وتحارب بشدة كل اتجاه لانسلاخها عنها . وحينما رأت الحركة الاتحادية التحررية تجتاح الصومال .. وتغزو ماكان يعرف بالصومال الفرنسى خشيت على نفوذها من الضياع فأعلنت أنهـــا ضد أية حركة سياسية تسعى الى تغيير الوضع القائم فى البلاد .

وازداد فزع فرنسا حينما رأت أن الحركة الوطنية الاتحـــادية فى الصومال تنادى بعروبته وبالاسلام دينـــا له .. وبالتضامن مع الدول الاسلامية والعربية مبدأ هاما فى السياسة الخارجية ، وهنا رأت أن تضع للعرب والاسلام وكرا مسموما فى الصومال .. فأبرمت اتفاقا مع اسرائيل يقضى بمنحها عدة امتيازات فى جيبوتى كانشاء المصانع وادارة الميناء وغير ذلك من الامور التى تكفل تعطيل الحركة الوطنية .. وواصلت فرنســـا رسالة التحدى والعنصرية فى مناصرة اسرائيل على عرب الصومال المسلمين حتى أصبح هذا الموضوع شغل أبناء الصومال الشاغل .

* * *

أما الحبشة فقد كان يثيرها أمر هذه الدولة العربية الاسلامية المزمع قيامها على حدودها باسم دولة الصومال .. ومن ثم عملت أقصى مايمكن لمنع هذا الحدث الذى يقض مضجعها ويعيد الى ذاكرتها قصة انتصـــار امارة الصومال العربية المسلمة على الحبشة أيام السلطان أحمد جرانى فى مطلع القرن السادس عشر وحاربت الحبشة هذا المشروع بكل قوة وتآمرت فى ذلك مع بريطانيا فسمحت لها باقامة قواعد عسكرية فى اقليم الأوجادين ، ومع أمريكا ، فوافقت على منحها قواعد للطيران والصواريخ والحرب الذرية، ومع فرنسا وايطاليا واسرائيل وكل مامن شأنه تعكير صفو الدولة الجديدة ولم تكتف الحبشة بجزء الصومال التى ابتلعته عنوة ، بل رأت ألا يستقر الوضع فى كل الصومال ولا تقوم للدولة الجديدة قائمة .

واختفت الحبشة وراء كل مشروع استعمارى فى الصومال .. فكان اقناعها لانجلترا بتنفيذ المشروع السرى المبرم بينهما فى عام ١٨٩٧ والذى بمقتضاه سلخت بريطانيا جزءا هاما من الوطن الصومالى يعتبر من أخصب

بقاعه وأميزها والذى اعتبرته ايطاليا أيام احتلالها للصومال عروس افريقيا ويعرف بمنطقة الأوجادين ٠٠ وأعطته لقمة سائغة للحبشة ٠٠ وقد وقع هذا الاعتداء السافر على حقوق الصوماليين وسيادتهم عام ١٩٤٨ والامم المتحدة فى سبيل تدبير وضع المستعمرات الايطالية السابقة ٠٠ بما فيها هذا الجزء ٠

ثم كانت المؤامرة الحبشية الأخرى تساندها الحراب الامريكية ٠٠ والقواعد العسكرية التى بدأت تأخذ طريقها الى أرض الحبشة ذاتها نظير اعتراف أمريكا بحقوق الحبشة فى الصومال ٠٠ فقد كانت أمريكا وراء كل مشروع حبشى يرمى الى عرقلة استقلال الصومال وتوحيد أنحائه ٠٠ وكانت الحبشة تطمع فى الاستيلاء على الصومال كله لاعلى منطقة الأوجادين فحسب وذلك نظير مساعدتها الحلفاء ضد المحور فى الحرب العظمى ٠٠ ثم سماحها بعد الحرب لامريكا باقامة قواعد عسكرية فى أراضيها ٠٠ وتعددت تصريحات المسئولين الأحباش وعلى رأسهم الامبراطور تفصح عن معارضتهم لمشروع وحدة الصومال ، ويلوحون بضرورة ابتلاع الحبشة للصومال كله ٠

***

ونأتى أخيرا لأهم الدول الاستعمارية وأكثرها نفوذا فى المنطقة وهى بريطانيا ٠ فقد رأت أن استقلال الصومال أمر خطير يشكل خطرا جسيما على مستعمراتها فى افريقيا التى سوف تتطلع بلا شك الى الصومال وما حققه من نصر سياسى تنتقل عدواه الى هذه المستعمرات فى أقصر وقت ٠ كما أن استقلال الصومال ووحدته سيكون الشغل الشاغل للعناصر الوطنية فى المستعمرات البريطانية ٠٠ فتنطلق من كينيا وأوغنده وتنجانيقا والدول التى تلاصق الصومال وغيرها من الدول فى سائر أنحاء القارة الافريقية نداءات التحرر والتخلص من قيود الاستعمار ، وعندئذ تضطر بريطانيا تحت وطأة المد الثورى فى هذه البلاد الى أن تستجيب لهذه النداءات لتخلص نفسها من حرج الموقف وصلابة الاصرار على غير حق ٠٠ هذه الاستجابة تعنى نهايتها فى منطقة شرقى افريقيا وضياع هذا الجزء الهام من الامبراطورية والذى سيكون مؤذنا بضياع مناطق أخرى بأكملها ، وقد صح ما توقعه ساسة بريطانيا ٠٠ فكان استقلال الصومال تمهيدا لاستقلال تنجانيقا وأوغندا ثم كينيا فى منطقة الشرق ٠٠ وأغلب المستعمرات فى منطقتى الغرب والوسط ٠

ولما رأت بريطانيا أن لا محالة من اعترافها باستقلال الصومال قررت أن تعمل عملا يحفظ لها هيبتها فرأت أن تمسك الحبل فى منتصفه ٠٠ فتوافق على استقلال الصومال شكليا ٠٠ وتضمه الى الكومنولث أو تربطه بعجلة

الامبراطورية فى أية صورة من الصور .. حتى يكمل السلسلة التى تمتد من جنوب عدن الى آخر تنجانيقا وتتصل غربا بكينيا وأوغندا لتخلق كتلة هائلة تتبع بريطانيا فى شرقى افريقيا تعوضها عن قاعدة السويس وتكون مركزا جديدا للنفوذ الانجليزى .

هذا موجز للمشروعات الاستعمارية .. مشروعات أمريكية وفرنسية وحبشية وبريطانية كلها تهدف الى السيطرة على الصومال والاستئثار بخيراته والتحكم فى شعبه وابادة عروبته وفصل كل كفاح له مع المجموعة الاسلامية ، وجعله ممزقا موزعا مقطع الأوصال .

ولم يكن الشعب الصومالى العربى ليرضى بهذا الوضع الكريه ، فبدأ يحارب مشروعات الاستعمار بعنف وقوة ، ويصر فى عزيمة صارمة صادقة على نيل استقلاله كاملا بعد انتهاء فترة الوصاية التى قدرتها الامم المتحدة وسقط فى سبيل تحرير الصومال وازاحة كابوس الاستعمار شهداء أبرار ومجاهدون شرفاء .

وفى مجال الدفاع عن استقلال الصومال .. وكسب حقوقه السياسية والاقتصادية والعمل على تطبيق قرار الوصاية تطبيقا سليما لاشوائب فيه تعوقه عن الظفر بالحرية الكاملة والاستقلال الحقيقى .. سقط شهيد عزيز من أبناء مصر وهو فى ميدان الدفاع عن المقومات الاساسية لشعب الصومال .. فقد اغتالت يد الاستعمار الآثمة الشهيد البطل كمال الدين صلاح المندوب المصرى فى لجنة الوصاية الدولية ، وذلك حينما لمع اسمه ليطغى على الآخرين .. وليطالب للصوماليين بمزيد من الحقوق التى سلبها الاستعمار منهم فى يوم ما ، وليكون هذا الشهيد مشاركة من الجمهورية العربية المتحدة فى الفداء والاستبسال والاستشهاد مع اخوان لها من أبناء الصومال .

وهكذا يعيد التاريخ نفسه ، فقد سبق أن رأى الاستعمار أنه لا سبيل الى احتلال الصومال والسيطرة عليه الا بزوال الادارة المصرية عنه . فانتهز ظروف الضعف السياسى التى كانت تمر بها مصر بسبب الاحتلال البريطانى لاراضيها ليرغم الحكومة المصرية المؤتمرة بأمره على اجلاء قواتها عن الصومال ولما تم ذلك وكان فى عام ١٨٨٤ انقض هو على الفريسة ليقتطع أجزاءها ويوزعها فيما بينه بالاتفاق والتراضى .

***

وفى عام ١٩٥٧ والاستعمار يريد أن يقرر مصيره فى بلاد الصومال على أساس مواصلة فرض سيطرته عليه رأى أنه لاسبيل الى ذلك العمل الا بزوال مصر من الميدان .. وكانت مصر هذه المرة هى مندوبها كمال الدين

صلاح فى لجنة الوصاية الدولية فحاربها الاستعمار فى شخصه ٠٠ ودبر أمر التخلص منه على هذه الصورة البشعة لانه رأى فيه معول الهـــدم لسياسة ومشاريع المستقبل ٠

مضى شعب الصومال فى ظل حكومته الوطنية فى السير قدما نحو عالم النور ٠٠ وأخذ يتخطى العقبات التى وضعها الاستعمار فى ســبيل استقلاله الواحدة تلو الاخرى ٠٠ كانت لجنة الوصاية الدولية تشرف أولا بأول على تنفيذ خطوات الاتفاقية التى وضعتها الامم المتحدة لتقرير مستقبل الصومال حتى أوشكت أن تنتهى عشر السنوات التى حددتهـــا كنهاية للوصاية الايطالية عليه ٠

وكان عام ١٩٦٠ من أعوام الصومال المجيدة ففى هذه السـنة أعلن استقلال هذا الجزء من الصومال الموضوع تحت الوصاية الدولية وارتفع علم الصومال القطر الافريقى العربى على سارية الأمم المتحدة بعد أن أصبح عضوا عاملا بها ، يعمل فى بناء هذا الصرح الدولى على أساس اقرار السلام والمحبة بين شعوب العالم ٠٠ فقد كان قرار الصومال المستقل فى سياسته الخارجية انتهاج سياسة الحياد الايجابى ونبذ الاحلاف العسكرية والتضامن مع بقية الشعوب الآسيوية والافريقية ٠

ولن يمضى وقت طويل حتى نرى الصـــومال كله وقد اتحد فى الصومال الكبير الذى مزقه المستعمر فيما مضى٠٠ لن نرى هذه التقسيمات والانتزاعات التى أريد بها تفتيت وحدة شعب الصومال والقضاء على كيانه .. وسنرى العملاق الافريقى الذى احتضن العروبة والاسلام فى هذا الجزء من هذا العالم منذ مئات السنين ليحافظ على دينها وتراثها وامجادهـا يقوم بواجبه من جديد فى هذا المجال ٠

**تم الكتاب**

# فهرس




الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تلفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤